القرن العشرين تياران اثنان : الأول يحلل التفاعلات ويطمح إلى تقديم تفسير علمي للمكان، وهو اتجاه يتصل بِرِتَرْ عبر كوكبة من الجغرافيين منهم كِرْشوف و وُولْ*و جَتسْبِك*. أما الثاني، أي التيار «الجمالي» أو «الانطباعي»، فهو اتجاه لاحق يولي الاهتمام أولًا وقبل كل شيء إلى الواقع المحسوس وما ينطوي عليه من تنوع كما عبر عن ذلك لفيف آخر من الباحثين (راتزَل، هُوميا، أُپْل*، شونْ* فيمَرْ*...) وهذا التقابل بين جغرافيا تعميمية ومعيارية تهتم بانتظام الظواهر ونصنيفها بغية استخراج قوانينها* وجغرافيا إقليمية* تعطي الأسبقية للتحليل الأحادي ودراسة الوحدة المنفردة، ما يزال يغذي الجدل حتى يومنا هذا، داخل المدرسة الألمانية وخارجها[56].

* Gatsbeck

* Opel
* Shöne
* Wimmer

* Landschft skunde
* Landerkunde

56

Bartels (Dietrich), **Perspectives de base dans la géographie ouest-allemande** Contemporaine. l'Espace géographique, n° 3, 1978, pp 155-167.

ومن الثابت أن «الثورة المحافظة» التي أخذت أفكارها تغزو النخبة الألمانية، جعلت البحث الجغرافي يتنصل بعض الشيء من النموذج الطبيعي وينسلخ عن المذهب الوضعي الذي يرفده لعدم ملاءمته لمعالجة موضوع المشهد؛ هذا المشهد الذي تميزه خصائص اجتماعية طبقاً لإرادة معينة : فهو النسيج الذي تحوكه أصابع الشعوب وتطرزه بخيوط فكرها وحضارتها. تلكم هي نظرة رِيلْ للموضوع، وهي النظرة التي سرعان ما استهوت الجغرافيين وأخذت توجه البحث الجامعي وتؤثر فيه. ولنبادر إلى القول بأن هذا الطرح ليس بدعاً فهو يستمد خذوره من الفكر الألماني الذي ورث عن هِرْدر وفلسفة التاريخ بالمنظور الهيچيلي أن الفكر ترجمة جماعية أكثر مما هو تعبير فردي. لذلك كان لزاماً أن تحظى الأمة في هذا الفكر – سواء كانت شعبا أو مجرد فئة – باهتمام يزيد عن اهتمامها بالفرد. ومعنى هذا أنه يمكن النفاذ إلى الفكر عبر المظاهر المادية التي هي وحدها تفصح عن آثار الشعوب وتعبر عن عبقريتها. ولا شك أن في الأوضاع الاجتماعية لبلدان أوروبا الوسطى ما يبرر هذا الاتجاه، حيث ما يزال الشعور بالانتماء السلالي حيّاً؛ بخلاف بلدان أوروبية أخرى كإيطاليا أو فرنسا مثلا. وهذا ما عبر عنه بالفعل وبصفة مبكرة أُجسْت مَايْتزِن*[57].

* August Meitzen

57

Meitzen (August) **Siedelung und Agrarwesen der Westgermanen und Ostgermanen der Kelten, Römer, Finner und Slawen,** Berlin, Hertz, 1895, 4 vol.

غير أن البحث الجغرافي الذي جعل من المشهد موضوعاً له قلما بلغ أهدافه وحقق طموحاته بسبب فرطه في التدقيق والتحري في

الجزئيات، إذ غالبا ما يركز الباحث اهتمامه على رقعة محدودة المساحة، متجانسة المظهر، الأمر الذي يحد من الرؤية ويضيق آفاق التأمل الواسع والتفكير العميق.

2.2.2.2. معالجة الموضوع.

تبرز المقارنة بين التحليل الاقليمي على الطريقة الفرنسية والدراسة المشهدية على النهج الألماني أن المدرستين تلتقيان في بعض الجوانب وتفترقان في جوانب أخرى. فنقط الاصتال يمكن تلخيصها في معايشة الميدان والاعتناء بالتحريات الميدانية والاستعانة بالوثائق التي تساعد على ضبط الأشكال أصلا وتطوراً. أما أوجه الاختلاف فهي تكمن أولًا في توظيف التاريخ الذي جعل منه الفرنسيون عنصراً تفسيرياً يتوخى، انطلاقاً من حالة راهنة، استحضار التوازنات السابقة التي ينبني عليها الحاضر؛ في حين اتخذه الألمان كمجرد عنصر تحليلي يكتفي بمعرفة أصل الأشياء. ثم تكمن ثانيا في اختيار المقياس وتحديد وحدة الدراسة. فإذا كانت المدرسة الفرنسية تؤكد على ضرورة رسم كل الحدود الممكنة وتمحيصها وترتيبها قصد إبراز تداخل التقسيمات الاقليمية ونِسبِيّتها، فإن الدراسة المشهدية تنطلق لتوها من مصادرة مفادها أن المشهد يطابق الوحدة الترابية الأساسية، أي ذلك المجال الذي عملت الجماعة على بنائه. لكن الجغرافيا الألمانية – وهذا جانب من جوانب القوة فيها – تقدر على معالجة المعطيات الطبيعية معالجة أشمل. فهي أكثر بالًا بقضايا الغطاء النباتي، تحاول تفسير بقاء التشكيلات الأصلية وتصف فعل الإنسان فيها، مشددة على تدهور الغابات والبراري ومنبهة إلى مظاهر التعرية وأخطار انجراف التربة.

ويفضي البحث في النهاية إلى إصدار حكم على الجماعات المستغلة للأرض وإظهار قدرتهم على تحقيق التوازن أو بالعكس على الإخلال به. وفكرة الانسجام والتوازن هاته ترد في رأي **دِيتْرِش بَرْطَلْس*** [58] إلى الفلسفة الطبيعية التي ظهرت في نهاية القرن الثامن عشر وعاشت طيلة القرن الموالي. غير أن فكرة الانسجام والتوازن وتباين قدرة الجماعات على تحقيقها تعطي لدراسة المشهد مقياساً معيارياً من شأنه أن ينحدر بالبحث العلمي الجاد

* **Dietrich Bartels**

58

Bartels (Dietrich), **Die Harmonie Begriff, Die Erde,** vol 100, 1969. pp 124-137.

والموضوعي إلى التفكير في التمييز بين مجتمعات عاملة متفوقة تستحق التنويه وأخرى متهاونة وفاشلة تستحق التوبيخ !

3.2.2.2 ـ غواية العنصرية

تشكل النزعة العنصرية في المدرسة الألمانية إحدى القضايا التي ما انفك الدارسون ينكبون عليها حتى اليوم[59]. ويرى شُلْتز وهو يعرض لهذه الظاهرة أن الانزلاق من الرصانة العلمية إلى الدعاية المشبوهة كان ـ بالنظر إلى الظروف السائدة آنذاك ـ أمراً وارداً. وهكذا فتحت الباب للجغرافيا النازية التي لم تكلف نفسها مشقة البحث عن «قضيتها» حيث اكتفت فقط بتوظيف المكتسبات التي تم تحقيقها خلال العقد الأول من القرن العشرين. وهكذا أصبح من اليسير جداً المطابقة بين المكان والسّلالة على أساس سلم جغرافي تفاضلي يميز بين قوم يصلحون وقوم يفسدون. وبناءاً على هذا أخذت فكرة الربط بين الأرض والدم ـ التي يجسدها مشهد نَضِرٌ متناسق يعبر عن عبقرية فذة وخصال حميدة ـ تحرك النعرة القومية وتبرر بالتالي استرداد أراضٍ سبق للأجداد أن اعتنوا بها وهي اليوم في حوزة ناس لا يحسنون استغلالها ! وبهذا المنظور لم تعد السياسة التوسعية تعتمد على الحقوق التاريخية، بل يكفي التذرع أو مجرد الادعاء بعدم كفاءة الآخرين للسيطرة على الأرض بالقوة.

وهذه التجاوزات التي يحاول البعض اسنادها إلى اعتبارات سياسية محض لم تسلم من عواقب العنصرية وحب الهيمنة اللذين طبعا القومية الألمانية آنذاك. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها واندحرت النازية ظل الاهتمام بالمشهد قائماً بعد أن تخلص من سلبيات المذهب المنحرف. وهكذا انصرف الباحثون عن الدعاية السياسية ليعودوا من جديد إلى الالتزام بأصول البحث العلمي الذي سمح باستمرار الجغرافيا الألمانية واحتفاظها بشخصيتها وأصالتها إلى غاية الستينات.

3.2.2 ـ المدرسة في الميزان

إذا كانت المدرستان الألمانية والفرنسية تسعيان كلتاهما إلى نفس

59

أنظر على سبيل المثال بعض المراجع التي يشير إليها بول كلفال في الهامش 45 من الصفحة 73 من كتابه السابق الذكر **Géographie humaine et économique contemporaine.**

راجع أيضا : Kleinschmager (Richard), **Géographie et idéologie entre deux guerres : la Zeitschrift fur geopolitik** 1924-1944. **l'Espace Géographique, Tome XVII, n° 1 Janvier - Mars, 1988, pp 15-29.**

الهدف، أي إلى وضع تقسيم دقيق للعالـم، فإن الأولى تعتمد في ذلك على مفهوم المشهد، بينما تركز الثانية على دراسة العلاقات بين الإنسان والبيئة. وهذان هما الموضوعان البارزان اللذان شغلا البحث الجغرافي خلال القرن التاسع عشر. ومع ذلك فلا يجوز حصر المدرسة الألمانية في القالب الإقليمي الضيق وتفسيرها فقـط بالمبادىء التي أرساها الْفرِدْهِتْنر. فمدرسة المشهد لا تتعارض مـع الرؤية الاقليمية الصرفة، بل تكملها في كثير من الأحيان. وربما هذا ما جعلها أكثر تماسكاً وجنبها لمدة طويلة التعرض للنـقد والتجريـح.

لكن المقدمات التي تنـطلق منها مدرسة المشهد، وخاصة منها فعل الجماعـة وآثاره الجلية على السطح، هي اعتبارات غير مألوفة ولا متداولة في المجتمعات الأخرى التي لم تعد العشرينات تسوغها وتفهمها. ومع ذلك ظلت العلـوم الجرمانية التي طبقت شهرتها الآفاق تجذب إليها اهتمام العلماء، حتى بعد الحرب، وعلى رأسهم الأمريكان كما يدل على ذلك مؤلف هَرتْشورْن «طبيعة الجغرافيا». فإذا تعلق الأمر بالقضايا المنهجية أو المسائل الفلسفية المتصلة بالمادة رجع الباحثون إلى الأعلام الرواد، اعلام القرن التاسع عشر، الذين لا يشق على المرْءِ فهمهـم. وأما الدراسات العصرية فهي لا تقدم مبادىء بقدر ما تقدم نتائج خاصة في موضوع تاريخ المشاهد الزراعية الذي جلب إليه كثيراً من الباحثين.

ومع ذلك ليس في ألمانيا ولا في غيرها من البلدان من استوعب المستجدات ووعى ما تحمله ريح التطور من لواقـح مخصبات، باستثناء ذلكم «المتقدم على زمانه» **وِلْيام كريسْتالر***، الذي طرح منذ سنة 1930 نظريته المعروفة (نظرية المكان المركزي)[60]، التي ساهمت إلى حد ما في بناء «الجغرافيا الجديدة». فأبحاثه ستـظل، وحتى في ألمانيا نفسها، مجهولة تماما إلى غاية الستينات حيث اكتشفها الأوروبيون عن طريق الأمريكيين !

إضافة إلى ذلك فإن النموذج الذي فرضته المدرسة المشهدية والذي قيدت به البحث جعل الجغرافيا الألمانية تغفل (أوتتغافل ؟) عن الجوانب الإجتماعية، وإن اهتم بعض كتابها بعد الحرب – مثل **هانس بُبِـكْ*** بجامعة فيينـا و **وُلْفـجَنْج هَارْتك*** بميـونـخ – بموضوع البنيات الاجتماعيـة الذي

* William Christaller

60

قد لا يوجد مرجع أساسي في الاقتصاد الجغرافي إلا وتضمن نظرية المكان المركزي، لذلك فلن نعرض لها ولا للمراجع الكثيرة التي تشرحها.

* Hans Bobek

* Wolfgang Hartke

قاد إلى دراسة الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية في علاقاتها مع البرجوازية من جهة، وإلى تحليل أشكال استعمال الأرض عند الطبقات المتوسطة ودراسة مخلفات المجتمع الريفي التقليدي من جهة أخرى؛ لكن دون محاولة التخلص من المسلمتين الأساسيتين اللتين تشكلان عماد الجغرافيا الألمانية : ترجيح التأويل – تأويل المشهد – على التفسير والتعليل والعمل على إبراز روح الجماعة وفكرها بعد استبدال الطبقة الاجتماعية بالسُّلالة. وقد يكون هذا سببا رئيسيا في عدم قدرة الجغرافيا الألمانية على تجاوز مرحلة التصنيف وتخلي الباحثيْن عن مشروع لمؤلف مشترك حول الجغرافيا الاجتماعية.

3.2 ـ الجغرافيا الأمريكية

للمرء أن يتساءل بعد الحديث عن المدرستين الألمانية والفرنسية هذا السؤال : هل المدرسة الوطنية تعبير لعبقرية شعب ما ؟ وباعتبار الحالتين السالفتين قد نميل إلى الجزم بذلك، لكن هذا غير صحيح، بدليل تطور الجغرافيا الأمريكية التي عرفت، ما بين 1910 و 1920 ازدهار مدرستين اثنتين من الصعب إدراجهما في نسق فكري واحد، رغم مالهما من أسس مشتركة.

1.3.2 ـ نشأة مبكرة ومسار طويل

يُرجع عدد من الكتاب الاهتمام بالجغرافيا بالولايات المتحدة إلى عهد باكر، وحجتهم في ذلك كتابات **طوماس جفّرْسُن*** (أحد مؤسسي الحزب الديمقرطي الذي اعتلى كرسي الرئاسة ما بين 1801 و 1809) حول إقليم فِرْجينْيا تحت عنوان : «ملاحظات حول فرجينيا». وتعد هذه «الملاحظات» من قبيل «الوصف الإحصائي» الذي كان ينجر في أواخر القرن الثامن عشر بأوروبا. وهذا ما قام به أيضاً **جِديدا مورْس*** مخترع المبراق المعروف.

* Thomas Jefferson 1743-1826

* Jedidah Morse 1791-1872

لكن الخطوات الأولى الحقيقية للجغرافيا في العالم الجديد لن تتم إلا ابتداءاً من سنة 1848 حينما استقدم لُوِيسْ أجاسّيزِ، عالم التاريخ الطبيعي والثلاجات، مواطنه الأصلي وزميله في الدراسة أرنُلْد چوِيو للعمل بالولايات

المتحدة. وچويو، كما نعلم، أحد تلاميذة رِتَرْ، لكنه يعرف جيدا آراء هَمْبُلت وأفكاره من خلال محاضراته التي كان يتابعها عندما كان يدرس بألمانيا. وقد استهل چُويو عمله بسلسلة من المحاضرات بمعهد لُووِّلْ في بُسْتن عن العلاقة بين الجغرافيا الطبيعية وتاريخ الإنسان بهدف توضيح التناسق بين العلم الطبيعي والدين.

وهذه المحاضرات التي نشرت تحت عنوان : «الأرض والإنسان» يؤكد في بدايتها المؤلف أن عمله لن يكون «مجرد وصف» لأن الجغرافيا «يجب أن تقارن [...] وتسعى لفهم التأثير المتبادل بين الظاهرات ذات الصبغة الطبيعية بعضها ببعض، وأثر العالم غير العضوي على الكائنات العضوية وعلى الإنسان بصفة خاصة»[61]. وقد ألف چويو كتباً مدرسية عديدة، ثم وضع كتاباً في الجغرافيا الطبيعية وأنجز عدداً من الخرائط للمدارس الأمريكية. إلا أن جل بحثه الأكاديمي كان عن ارتفاع الجبال التي قاس بعضها بالمضغاط (البارومتر) وعن الظواهر الجوية بفضل المحطات التي أنشأها[62].

رغم الأيادي البيضاء التي أسداها چويو للجغرافيا الأمريكية، كثير هم الذين يقولون أنه لم يكن له أتباع ولم يؤسس مدرسة؛ فتلك غاية لن تتحقق إلا على يد دَيْفِز الذي بدأ نشاطه بعلم الأرصاد قبل أن يرسي قواعد الجيومورفولوجيا[63]. هذا وتجدر الإشارة إلى أن أول قسم للجغرافيا لم يتأسس إلا في سنة 1903، وذلك بجامعة شيكاچو. كما يجدر بنا أيضاً ألا نغفل ذكر معاصرين لچويو : أحدهما **مُوري***، الذي اعتبره هَمْبُلت مؤسس علم البحار، زيادة على باعه الطويل في ميدان الأرصاد الجوية؛ والثاني **جُورْج پركِنس مارْش***، الذي كان لكتاباته نتائج عملية طيبة للغاية في أمريكا، وإن لم يكن له هو أيضاً خلفاء يحملون آراءه[64].

أصدر مَارْش سنة 1864 كتاباً بعنوان : «الإنسان والطبيعة» وصفه **لِويسْ مَمْفُرد***، الفيلسوف الاجتماعي الأمريكي الشهير، بأنه القمة في الدعوة إلى المحافظة على الطبيعة. وخلافاً لما يعتقد رِتَرْ وچويو من أن الأرض صنعت الإنسان، فهو يرى أن الإنسان هو الذي صنع الأرض وانطلاقاً من هذا الطرح راح يشرح كيف أن الإنسان، على جهل وبدافع

61

عن ت و. فريمان، **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، ص 40.

62

عينه، ص 41.

63

«لقد كان دَيفِز في الأساس جيولوجيا، ولكنه تحول في تسعينات القرن الماضي إلى ميدان الجغرافيا. وقد سعى إلى تكامل عنصري الطبيعة والإنسان بعد فترة سادت فيها الازدواجية بين الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية. واستعان ديفز بمنهج دَارْون في التطور الذي اعتبر حقائق الطبيعة والإنسان قائمة وموجودة وتربطها علاقات منسجمة على شكل سلسلة متصلة من السبب والنتيجة. وقام ديفز بتصنيف الحقائق البشرية مستنداً في ذلك على تصنيف الحقائق الطبيعية للأرض. ويقول بأن المظاهر الطبيعية للأرض كانت تدرس من قبل الجغرافيين الطبيعيين من حيث الأصل والعملية الاجرائية. وبناءً عليه فإن أشكال الأرض يجب دراستها جغرافيا على ضوء الاستجوابات الإنسانية والضوابط البشرية. وكان يطلق على الحقائق البشرية على سطح الأرض مصطلح «انتجرافيا» Ontography، أما حقائق الأرض الطبيعية يطلق عليها «فزيوغرافيا» Physiography ». محمد علي عمر الفرا ــ **اتجاهات الفكر الجغرافي الحديث**، سابق، ص 78ــ79.

* M.F Maury 1806-1873

* George Perkins Marsh 1801-1882

* Lewis Mumford

64

يقول ت.و فريمان «ربما يكون السبب في

الجشع، يتعدى على الطبيعة ويهدرها ويتمادى في غيه كلما زادت قدراته المادية.

ولا شك أن هذا الموقف بعيد، بل مناقض تماماً للآراء الرائجة آنذاك عن «الإنسان وغزو الطبيعة». لذلك فهو يحذر بشدة من مغبة اجتثاث الغابات والقضاء عليها، الأمر الذي يؤدي «في فصل من الفصول إلى فقدان الأرض لحرارتها بالاشعاع إلى السماء المكشوفة، وفي فصل آخر إلى اشتداد حرارتها بتأثير أشعة الشمس التي لا يحجبها شيء» وبذلك، كما يقول مارش، تنجرف التربة ويتغير المناخ.

واهتم مارْش كذلك بالريّ، فوضع رسوماً توضيحية من خلال رحلات متعددة في مصر وفلسطين وتركيا وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط وجبال الألب. وهكذا جاء عنوان كتابه الثاني كما يلي «الجغرافيا الطبيعية كما تتعدل بفعل الإنسان». وفيه يُجمل مارشْ آراءه في قولة اقتبسها عن **بوشْنِل*** : «إن كل الرياح والعواصف والزلازل والبحار والفصول في العالم لم تفعل قدر ما فعله الإنسان... في تغييره للأرض بشكل ثوري منذ أن ظهر عليها الأول مرة»[62].

* H. Bushnell

إن الصرخة التي أطلقها مارْش لم تكن صيحة في وادٍ إذ أدى ذلك الدفاع المستميت على الطبيعة إلى تحفيز الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم لرفع مذكرة بهذا الشأن إلى الكونجرس الأمريكي في سنة1873 تكونت بموجبها لجنة وطنية للغابات عملت على تحديد المناطق التي تجب حمايتها وإيجاد ميثاق وطني لها سنة 1891، ثم بعد ذلك اتخذت تدابير أخرى قصد حماية مناطق تقسيم المياه، ليوضع في النهاية برنامج حكومي للمحافظة على الموارد الطبيعية. وفضلاً عن هذا استطاع مارشْ أن يؤثر تأثيراً واضحاً على سياسة الري في بلاده. فتخطيط الري في رأيه ليس بالأمر الهيِّن، بل يعتبره عملا معقداً يتطلب تشييد السدود ودراسة التربة والاحتراز من أخطار الملوحة. فالمسألة أدهى من أن تكون مجرد عملية سقي وانسياب المياه في الحقول. وإذا كان مارْش قد ذكر الكثير من هذه القضايا في كتاب «الإنسان والطبيعة» فهو يدققها بطريقة عملية أكثر في مؤلف آخر : «الريّ مساوئه وعلاجه والتعويضات»، نشر في سنة 1874؛ وهو

ذلك أن مَارْش قضى جزءاً كبيراً من حياته خارج أمريكا، وأن الكتب والمقالات التي تركها جويوت Guyot لم تكن جذابة للقراء على الرغم من أنها كانت مراجع مهمة خصوصاً للبيانات الميتورولوجية وارتفاع الجبال»، **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، ص 279 ــ 280.

الكتاب الذي وجه **پووِّلْ***، رئيس المساحة الجيولوجية في عمله وجعله يهتم أكثر بالأقاليم الجافة من الولايات المتحدة.

* H.W. Powell 1843-1918

ولهذا جاز اعتبار مارْش رائداً حقيقياً لما يسمى اليوم بالجغرافيا التطبيقية. لكن رغم هذه البادرة الطيبة والعمل الممتاز لم يتفتح بُرعم الجغرافيا الأمريكية بالسرعة المنتظرة، اللهم ما كان من أمر الجيولوجيا بفضل بعض الرواد الذين عملوا على اكتشاف «المجاهل» الغربية من البلاد كپووِّل ودَيْفز بالخصوص الذي التحق بجامعة هَارْفَرْد سنة 1878. ورغم ذلك لم تفلح الجغرافيا في غزو الجامعات القديمة بشرق البلاد، بينما سيكون حظها أسعد في الجامعات الفتية التي ظهرت في الغرب والتي استطاعت فيها العلوم الإنسانية أن تفرض وجودها.

فهل تحذو الجغرافيا الأمريكية الناشئة حذو الجغرافيا الأوروروبية العريقة ؟

إذا وجد هناك من يقلد الأوروبيين ويسير على نهجهم كما فعلت إِلِنْ سَمْپل التي عملت على التعريف برَاتْزل وآرائه فهيهات أن يقنع الأمريكان أو يقتنعوا بذلك بحكم عقليتهم الوضعية الصرفة التي لن تصادق على تلك المبادىء والتي ترى أن العلم لا يقوم إلا على أدوات علمية دقيقة لا توفرها بالطبع المعالجة الجغرافية الألمانية في ثمانينات القرن الماضي.

وفي هذه الجامعات الفتية كان التواصل والتلاقح بين مختلف الاختصاصات يتمان في ظروف أحسن بالمقارنة مع الجامعات القديمة التي قد تنعزل فيها تلك التخصصات وتنغلق على نفسها من جهة، وبالنظر إلى «تنقل» الأساتذة من مادة إلى أخرى بسبب العجز الحاصل في هيئة التدريس من جهة أخرى. وهكذا استفادت الجغرافيا الأمريكية الفتية استفادة كبيرة من التقدم الهائل الذي حققه علم النبات حوالي 1910، والذي كان فيه لـ**كليمَنْتس***حضاً وافراً. فكليمنتس هذا هو صاحب مفهوم «الذروة» والذي طرح رؤية جديدة حول تطور الاستيطان النباتي. وهو يعتمد في دراسته بالأساس على الخريطة المدققة التي سرعان ما شاع استعمالها في مسح الظواهر المختلفة.

* F.E. Clements

وبهذا تكون الجغرافيا الأمريكية قد استفادت كثيراً من عمل كليمنتس. فكما أن الجغرافيا الفرنسية تنطلق من خرائط الكثافات والجغرافيا الألمانية من المشهد فإن الجغرافيا الأمريكية تتميز بالاعتماد على المسح الدقيق والمقياس الكبير لمظاهر استعمال الأرض.

2.3.2 ـ رُواق «ميدلْ وسْت» : اهتمامات اقتصادية.

لم يقترن هذا الجناح من الجغرافيا الأمريكية، بعلَم من الأعلام أو بأحد الأسماء اللامعة. فهذه المدرسة الحقيقية تطورت تدريجيا بفضل لفيف من الباحثين الذي شغلتهم أمور الاقتصاد فانكبوا على فهم توزيع المزروعات وانتشار الصناعات وتركز التجارات. لكن تلك السهول، سهول ميدَلْ وِسْت، المترامية الأطراف، الشاسعة الأرجاء التي لم يستوطنها البيض إلّا حديثاً، بخلاف بلدان أوروبا، لم تكن مشاهدها المتشاكلة، الهندسية، تسعف التقسيم الجغرافي وتيسِّر الميز فيما بين المناطق والمدن والأرياف.

ولذلك فإن مدرسة ميدَلْ وِسْت هي المدرسة الوحيدة التي تفسر الظاهرات الجغرافية تفسيراً وظيفياً، يهتم بالمبادلات، يُعنى بفهم الواقع ويحلل طرق التكامل بين الجهات اعتباراً لتنوع الظروف الطبيعية والخيرات الباطنية. ومن أجل ذلك فهي تستعين كثيراً بالجيولوجيا وعلم المناخ اللذين يمدانها بالعناصر اللازمة. وهكذا فإن عدداً من الجغرافيين الذين استقدمتهم جامعات ميدَلْ وِسْت، بين الحربين، كانوا ينتمون أصلًا إلى شُعب الجيولوجيا؛ خاصة أولئك الذين تخصصوا في «الجيولوجيا الاقتصادية» التي ظهرت إلى الوجود. تلك هي البيئة التي ترعرت فيها الجغرافيا الاقتصادية التقليدية وازدهرت.

غير أن اهتمامات هذه المدرسة لم تقف عند هذه الاعتبارات الاقتصادية وتقتصر عليها، فالجغرافيون هنا ـ كما في سائر البلدان ـ مهتمون بمسألة التقسيم الإقليمي التي جعلوا من عامل التخصص الوظيفي أحد مفاتيحها الأساسية؛ لا سيما في بلد ينشط فيه الاقتصاد بفضل المبادلات والتسويق والمنافسة الحرة، كما يدل على ذلك أحزمة الزراعة المتخصصة التي تضرب أمثلة رائعة لبنيات إقليمية لا أمت فيها. ومع ذلك فهؤلاء الجغرافيين

لا يشعرون بالراحة لافتقارهم إلى مبدىء يبنون عليه دراسات تأليفية كتلك التي يبرع فيها زملاؤهم الفرنسيون. لكن المدرسة تفوَّقت حينما أثارت أهمية التنظيم السياسي كما يتضح ذلك من خلال الأبحاث الجادة التي أنجزت في الثلاثينات كأبحاث هَرْتشورْن[65]، والتي جاءت تلقي الأضواء على عدد من المشاكل المغفلة.

إن هذه الثلة من الجغرافيين الذين يتقنون أيَّما إتقان عمليات المسح ويعتمدون على خرائط التوزيع ويزاولون الميدان ويحسنون طرح المشاكل المتعلقة بالوحدات المدروسة، لم تَقدِم مع ذلك على التنظير ولم تُقدِّم منظومة تفسيرية شاملة للظواهر الجغرافية. وقد يكون السبب في ذلك اهتمامها بالمظهر وإهمالها للجوهر الذي ينطوي على جملة من القضايا الكبرى كالإنسان والمؤسسات والآليات الاجتماعية والاقتصادية.

ويستخلص مما سبق أن مدرسة ميدَلْ وسْت ارتكزت في واقع الأمر على ثلاثة مفاهيم أساسية تعود كلها إلى القرن الماضي : أولها المشهد وثانيها جملة من الأفكار حول الاقتصاد، وإن لم تتضح بعد، وآخرها البعد الزمني الذي لم تحققه على الوجه الأكمل بسبب إهمالها بحث منطق الظواهر الاقتصادية والاجتماعية.

3.3.2 ـ رُواق بركي : الجغرافيا الحضارية[66].

تختلف مدرسة بركْلي عن مدرسة ميدَل وِسْت اختلافا كليا لدرجة التقابل والتمانع. ففي الوقت الذي انكبت فيه هذه الأخيرة على دراسة تنظيم المكان ومعالجة المشاكل الراهنة في غياب أي قطب علمي مهيمن، انصرف «البركْليون» بقيادة **كارْل ساوِرْ*** وتحت تأثير شخصيته القوية إلى الاهتمام، بالدرجة الأولى، بزمان غير زمانهم ومكان غير مكانهم : ذلك بأنهم ولعوا ولعاً شديداً بقضايا أمريكا اللاتينية حيث ركزوا على موضوعين رئيسيين : أحدهما يهتم بالهنود الحمر والآخر بالتنظيمات الجغرافية التقليدية.

ومن الطريف أين يكون سَاوِرْ زعيم هذا التيار الحضاري الذي يستخدم فكرة الحضارة في المشاكل الجغرافية ليخلق بها فرعاً جديداً بجانب الفروع الأخرى كالجغرافيا الاقتصادية أو السياسية[67]. فهو نشأ وترعرع

65

Hartshorne (Richard) **The functional approach in political geography**, Annals. Associaltion of American Geographers, vol 40, 1950.

66

من المعرِّبين من يقابل كلمة « Culture » بلفظ «ثقافة» ومنهم من يترجمها بـ «حضارة» وكلا المصطلحين مقبول. فالمعاجم، وحتى المتخصصة منها والتي يعرض بعضها معنيين للكلمة أحدهما «موضوعي» والآخر «ذاتي»، تعتبر الكلمتين مترادفتين. ثم هناك لغات كالألمانية مثلا يدل فيها لفظ «الثقافة» على «الحضارة». أما بالنسبة للدارسين المتخصصين فلهم في هذا المقام مقالات وآراء وتعاريف مختلفة. ولنا، إن شاء الله عودة إلى الموضوع.

* **Carl Sauer**

67

Miksell (W. Marvin) and Wagner (Philips) **Reading in cultural geography**, University of Chicago, Chicago Press, 1971. pp VII-I.

بميدَل وِسْت حيث حصل على تكوين علمي جيد مكّنه من وسائل المسح الميداني وتقنيات وضع الخرائط الدقيقة لاستعمال الأرض. وعندما التحق في سنة 1923 بجامعة بركلي كمدرس التقى بالإناسي **كَروبَرْ** *، الذي عرفه بالإناسة وأطلعه على وسائل عملها وطرقها في تحليل الأمكنة التي تستوطنها قبائل الهنود، كما أرشده إلى منهج دراسة ثقافتهم وحضارتهم.

* A.L. Kroeber

هذا ولقد سافر ساوِرْ إلى ألمانيا فاطلع على البحوث حول المشهد كبحوث **شلوئرْ** مثلا. لذا فهو يُعرف الجغرافيا كعلم يدرس المشاهد من أجل ضبط العلاقات القائمة بين الإنسان والبيئة، غير أنه يجمع بين هاتين الفكرتين الموروثتين عن القرن التاسع عشر (المشهد والبيئة) ثم يمزح بينهما ليبرز في النهاية الخصائص الحضارية لقوم ما. وبهذا يكون ساور مؤسس الجغرافيا الحضارية الحديثة.

ومن الأشياء الكثيرة التي استخلصها ساوِرْ من مطالعته للدراسات الألمانية أن معالجة الجوانب الحضارية والثقافية والاجتماعية تختلف كل الاختلاف عن دراسة الظواهر الطبيعية، لذا فهو يقول باستحالة وضع وصف موضوعي للمحيط مادام لزاماً اعتبار رؤية الجماعات وما دامت هذه الرؤية قائمة بالطبع على قيم وتصورات معينة. لكن هذا الطرح، وإن كان أقرب الطروح الجغرافية من اهتمامات العلوم الإنسانية وتساؤلاتها، يظل غامضاً حتى عند التحليل الذي يعتمد أساساً على وصف المشهد والقيام بجرد للنباتات والحيوانات التي يتعيش بها الناس وذكر التقنيات المسخرة لتحقيق هذه الغاية.

إن هذا العمل، وإن تميز بالدقة، يظل مجرد وصف يحاكي عمل الطبيعيين. «وكان ساوِرْ في هذا يسير على غرار ما هو متبع في أمريكا عموماً من حيث تقسيم الجغرافيا إلى قسمين أحدهما طبيعي وثانيهما بشري، فقد ذكر مثلا ،ان الإنسان، وهو نفسه ليس موضوعاً للبحث الجغرافي، وقد أعطى للمنطقة تعبيراً عن طريق إنشاء المساكن والمصانع والأسواق والحقول وخطوط المواصلات، ولهذا السبب فإن الجغرافيا الثقافية تهتم بدارسة هذه الأعمال الإنسانية التي تبرز على سطح الأرض لتعطيه المظهر المميز له،»[68].

68

ت.و فريمان، **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، ص 206.

ويستنتج من هذا أن الجغرافيا الحضارية التي أسستها بركْلي تخالف مخالفة صريحة النهج الذي رسمته لنفسها مادامت تُؤثر الاعتماد على الشواهد المادية الظاهرة في المحيط البشري على رؤية البشر وتصوراتهم لها. ومما يساند هذا الرأي ويزكيه ما يذكره كلفَالْ[69] بشأن النصيحة التي أسداها هَرْتشورْن إلى **مَارْفِنْ مِكْسَلْ*** قبل سفره إلى المغرب الأقصى لدراسة جبال الريف إذ حثَّه حثًّا على تعلم اللغة الألمانية بدعوى أن أجود الدراسات في علم النبات – الذي لا يستغني عنه في قياس مدى تأثير الإنسان على المشهد – قد كتبت بهذه اللغة ! أو لم يكن حَرِيّاً به أن ينصحه أن يتعلم أولًا ما قد يفيده أكثر كالإلمام بالأمازيغية والعربية والإسبانية حتى يتمكن صاحبنا من مخاطبة الادارة والتحدث إلى الناس ؟

وعلى كل حال فإن المنهج الذي يطبقه ساوِرْ منهج يلائم المجتمعات البسيطة، أي تلك التي تنحصر فيها علاقات الجماعة بالبيئة في رقعة ضيقة، الأمر الذي يجعل استقراء المشهد وسيلة كافية لضبط تلك العلاقات؛ بخلاف الحالات السائدة الأخرى التي تتعدد فيها أمكنة استعمال الأرض. ولتفادي هذا النقص يرجىء الجغرافي قضية التوزيع إلى ما بعد فحص مسألة العلاقة بالبيئة المحلية، أي أن البحث يبدأ بالكشف عن أساليب وطرق استغلال الهرم البيئي قبل تناول توزيع النطاقات الحضارية. وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى أن ساوِرْ أخذ عن **كلارْك وِسْلَرْ*** منهجه في تفسير مستوطنات الهنود. وهو تفسير مزدوج تارة ينبني على قدرة التحكم في الوسط البيئي، وتارة يعمد إلى أهمية الهجرة البشرية ودور انتشار التقنيات؛ تفسير يقنع بهذا ولا يشعر بالحاجة إلى المزيد من تعميق الموضوع.

وهذا ما تؤكده بالفعل كل التعاريف اللاحقة التي أعطيت للجغرافيا الحضارية غرباً وشرقاً. **فِتِرِّي جُورْدَن*** و **لِسْتَر رَاوْتري*** يقولان بأنها «دراسة الاختلافات المكانية بين المجموعات الحضارية وأنها ترتكز على وصف وتحليل تغير أو إثبات اتجاهات اللغة والدين والاقتصاد والحكومة والظاهرات الحضارية الأخرى كلما تغيرت البيئة[70]». في حين يرى **يسري الجوهري** «بأن شكل الأرض الحضاري* يشمل دراسة السكان

69

Paul Claval, **Géographie économique et humaine contemporaine**, op. cit. p 81.

* **Marvin Mikesell**

* **Clark Wissler**

70

Jordan (G. Terry) and Rowtree (Lister), **The human mosaic, a thematic introduction to cultural geography**, Harper and Publisher, Imp. New York, 1971, pp 5-7.

* **Terry Jordan**
* **Lister Rowtree**

* **Cultural Lanscape**

والسكن ووسائل التنقل في الإنتاج الصناعي والزراعي والمعدني وبصفة عامة الاستغلال الاقتصادي للأرض والمظاهر المادية الملحوظة الناتجة عن تفاعل الإنسان مع البيئة كقيامه بحرفة معينة في بيئة ذات طابع خاص، وتشييد منزل، وربط محلته بغيرها من المحلات العمرانية. ويرتبط بهذه المظاهر الملموسة بعض النواحي الحضارية والسياسية التي هي جزء لا يتجزأ من الاستقرار البشري»[71].

71 جوهري (الـ) يسري، **الجغرافيا الاجتماعية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، 1978، ص 25، عن عبد الله الصنيع، **أضواء على مفاهيم الجغرافيا والحضاري**، سابق، ص 12، 13.

3 ـ المدارس المقلدة

1.3 ـ تياران رئيسيان

إذا كانت الجغرافيا خلال الشطر الأول من قرننا هذا قد تميزت بتنوع مدارسها وازدهارها فإن هذه المدارس ظلت في الواقع حكراً على عدد قليل من الأقطار. ولعل السبب في ذلك راجع إلى محدودية عدد التراكيب التي يمكن اشتقاقها من المفاهيم السائدة آنذاك وهي ثلاثة كما نعلم : الإقليم والبيئة والمشهد. فالمزاوجة بين الاقليم والبيئة ولدت المدرسة الفرنسية. أما الجمع بين الاقليم والمشهد فتمخضت عنه الجغرافيا الألمانية. في حين خلق المشهد والبيئة الجغرافيا الحضارية ومدرسة بركلي. وإذا ما عوضنا المشهد في الحالة الثانية باستعمال الأرض من المنظور الاقتصادي، وهو اعتبار ثانوي بالنسبة للاتجاهات الثلاثة الكبرى، فإننا نلتقي بمدرسة مِيدلْ وِسْت.

فماذا يبقى إذن من الامكانات ؟ وهل من وسيلة للابتكار ؟ لا شك أنه من الصعب جداً تحقيق أنساق جديدة يكون لها ما للأخرى من أصالة وفعالية. هذا ومن كان يبني بحثه أساساً على مفهومي الإقليم والبيئة، كما دأبت على ذلك جل الجغرافيات خارج المدارس، فقد يستعصي عليه استعصاءاً العثور على حل يتجاوز الحلول التي وضعتها المدرسة الفرنسية. فكل ما يستطيع الباحث فعله هو تكييف المنهج الذي يميل إليه مع الوسط الذي يعمل فيه.

1.1.3 ـ الجغرافيا البريطانية

في سنة 1893 قال الجغرافي الروسي **كْروبُتْكِنْ*** : «لو أن أُكْسفورْد كان بها منذ خمسين سنة شخص مثل ريتر يشغل أحد الكراسي بها ويجمع حوله الطلاب من مختلف جهات العام لأصبحت هذه الدولة وليست ألمانيا، هي التي تحتل مركز القيادة في العلم الجغرافي[72]». فرغم ظروف مواتية وعوامل مشجعة لم يقتحم البريطانيون ميدان الجغرافيا مبكراً كما فعل جيرانهم الفرنسيون والألمان. أو ليست بريطانيا العظمى، تلكم الأمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمش، أكثر البلدان الاستعماية مواجهة لمشاكل استغلال الأقطار وتنظيمها ؟ ومع ذلك ظلت الجغرافيا البريطانية تكاد تقصر جهودها على الكشوف، وإن كان لها كرسي بالكلية الجامعية بلندن منذ 1833 حيث شغله الرائد **جَيْمس ماكُونوشي*** مدة ثلاث سنوات.

* Peter Alexevich Kropotkin 1842-1921

72 عن ت. و. فريمان، سابق، ص 72.

* James Machonochie

ومن الأسباب الرئيسية لهذا التخلف عدم الاعتناء بالتعليم الجغرافي الذي بقي محصوراً في المدارس الثانوية التي لم تتكاثر إلا في العقد الأخير من القرن الماضي في إقليم ويلز ثم في انجلترا. وفي 20 مايو من سنة 1893 عقد بايعاز من **مِسْتَر ديكَنْسُن رَاجِي*** لقاء في أُكسْفورد لبحث تطوير تدريس مادة الجغرافيا. وخلال هذا الاجتماع أيضاً طرحت فكرة تأسيس رابطة جغرافية جعلت من أهدافها الكبرى بالذات النهوض بتلقين المادة في المدارس والكليات. وقد استفادت الرابطة من مساندة الجمعية الجغرافية لها، حيث شجعتها على تولي مهمة التعليم التي كانت تشرف عليه وعملت على إعطاء الجغرافيا المكانة اللائقة بها في الامتحانات، كما حرصت أيضا على تحديد مضامينها. ولقد كان لكتاب **تُوماسْ هَنْري هَكْسلي*** عن الفيزيوغرافيا الذي نشر سنة 1877 أبلغ الأثر في الجغرافيا البريطانية الفتية؛ إذ أحدث تغييراً عميقاً في التدريس على جميع المستويات. «فمصطلح فيزيوغرافيا لم يكن حتى ذلك الحين قد ظهر، ولكن الشائع آنذاك كان المفهوم المرفولوجي. ولكن الفزيوغرافيا تتميز عن الجيولوجيا بالشمولية إذ يمكن تعريفها بأنها وصف الطبيعة، ويدخل ضمنها الحيوان والنبات والجيولوجيا[73]».

* Dichinson Rughy

* Thomas Henry Huxley

73 Holt (Jensen A.) **Geography, its history and concepts,** Harper and Row, London 1982.

عن محمد عمر الفرا، **اتجاهات الفكر الجغرافي المعاصر، سابق، ص 68.**

وعلى ما يبدو فإن تدريس الجغرافيا في الجامعات البريطانية بصفة

منتظمة بدأ بتعيين **هَلْفوزْد ماكنْدَر*** سنة 1887 أستاذاً مساعداً بجامعة أكسفورد التي شهدت تأسيس أول قسم للجغرافيا في بريطانيا عام 1900[74].

ومع ذلك فإن التقدم كان بطيئاً ومشكوكاً في أمره في بعض الجوانب حتى كانت سنة 1905 التي نشر فيها **جُونْ أندرو هِرْبِرْتسَن***[75] دراسته المشهورة : «الأقاليم الطبيعية الكبرى للعالم» الذي يقول فيه : «إننا في هذه البلاد أقل تقيّداً بالتقاليد بالنسبة لبعض البلاد الأخرى حيث لا توجد عندنا في واقع الأمر جغرافيا أصولية يمكن الاسترشاد بها. فلما ظهرت الجغرافيا الأكاديمية ظهر للجغرافيا مفهوم أوسع وهو أنها علم التوزيعات». ثم يستطرد قائلًا : «إن الجغرافيا لا تهتم بتوزيع عنصر واحد على سطح الأرض بل بتوزيع العناصر كلها»[76]».

لكن زعامة الجغرافيا ستكون بلا منازع لـ**سَارْهَلفوزْد ماكِنْدر** الذي يرد إليه الفضل في إرساء قواعد الجغرافيا كعلم يدرس في الجامعات البريطانية. فلقد كانت حياته العلمية متنوعة للغاية فبعد أن ترأس كلية رِنْج الجامعية أصبح مديراً للمدرسة الاقتصادية الكندية ثم عضوا في البرلمان. وهو الذي وضع أساس مدرسة الجغرافيا بأكسفورد عندما كان يعمل بها من سنة 1887 إلى سنة 1905. «وقد دخل ماكِنْدر الجغرافيا من باب علم الاجتماع وتأثر كثيراً بآراء پاترِكْ جِدْس وأفكاره عن العلاقة بين البيئة والإنسان»[77]؛ هذه الأفكار التي لا يستطيع أحد أن ينكر دورها الفعال في توجيه الجغرافيا البريطانية الحديثة وذلك بشهادة كل معاصريه الذين أسسوا المدرسة الوطنية مثل **هربرتسن** و **هْيو رُبَرْت مِل*** و **سْكوتْ كِلْتي*** و **جورج چودي تشيزَلْم***.

من المعلوم أن فترة ما بين الحربين قد شهدت توسعاً هائلًا في الميدان الجغرافي، لا في ألمانيا وفرنسا فحسب، بل حتى في بريطانيا أيضاً بفضل النشاط الدؤوب للرواد الذين كانوا يعلمون بالجامعات والمدارس إذ وضعوا برامج خاصة بطلبة الامتياز كان أولها في جامعة لِيڤرپُول سنة 1917، ثم في كل من أبِرَسْتُوايذْ ولندن بعد عام فقط، ثم في كَمْبرِدْج ولِيدزْ سنة 1919. كما اضطلع هؤلاء بمهمة التأليف وإعداد الكتب المدرسية. ومن

* Halford Mackinder 1861-1948

74
عينه، ص 67.

* John Andrew Herbertson 1865-1915

75
بعد الدراسة في كل من ألمانيا (فريبْرْج Fribourg) وفرنسا (باريس) بدأ هِربِرْتسنْ يعمل في ميدان الأرصاد وعلم البحار. وهو من مؤلفي أطلس «بَرْثُولوميو» للأرصاد. لكنه بعدما التحق بالجامعة اشتغل بعلم النبات بكلية دَنْدي (Dundee) الجامعية تحت إشراف پاترِكْ جِدْس. ثم بعدها عمل بكلية أووِنس (Owens) بمانْشِسْتر ما بين 1894 و1896؛ ثم في أكسفورد. وله عدد من الكتب المدرسية التي ألف بعضها بمساعدة زوجته.

76
ت.و. فريمان، **الجغرافيا في مائة عام**،سابق، ص 88.

* Hugh Robert Mill
* Scott Kiltie
* George Goudie Chisolm

77
محمد عمر الفرا، **اتجاهات الفكر الجغرافي المعاصر**، سابق، ص 68.

أبرزهم ماكِنْدَر وهِرْبرسْتنْ بمعيه زوجته «ذات الكفاءة العظيمة» و **مَارْيِنْ ڤيوبِجَنْ** «وهي سيدة موهوبة خصصت مجهودها الرئيسي لخدمة الجمعية الجغرافية الملكية الاسكتلندية، ولم تتفرغ في أي وقت من الأوقات لوظيفة جامعية» وتشيزلم[78]، الذي أخرج نسخة مختصرة من «كتابه الخالد» في الجغرافيا الاقتصادية[79]. وقد ساهمت هذه الكتب مساهمة محمودة في الرفع من مستوى الجغرافيا وجعلها مادة جذابة وممتعة للمتعلمين.

ولما أخذ التعليم الجامعي ينمو ويتطور أصبحت الحاجة إلى الكتاب الرفيع المستوى تطرح بإلحاح شديد، الأمر الذي أدى بالضرورة إلى اعتماد عدد كبير من الكتب الفرنسية أهمها كتابي جانْ بْرونْ وفدال دُلَبْلاش في الجغرافيا البشرية ومؤلفات أَلْبِيرْ دمنْجون التي ترجم بعضها إلى الانجليزية ككتاب «اضمحلال أوروبا» (1920) و «الامبراطورية البريطانية» (1923) وهو المرجع الذي ظل الطلاب البريطانيون يلجأون إليه لدراسة جغرافية بلادهم. كذلك فعل الجغرافيون الطبيعيون الذي اتخذوا ألمانيا قبلة لهم فاعتمدوا على كتب **سُووِس**، صاحب مؤلف «وجه الأرض» المكون من أربعة أجزاء (1883 – 1909) والذي ترجم إلى الانجليزية والفرنسية؛ وإنتاج **پِنْك*** و **باسرج*** و **ديفز**.

إن پاتْرِك جِدْس في الأصل عالم نباتي كان يشغل معظم حياته منصباً في جامعة دَنْدي، وهو منصب لم يكن يتطلب التدريس إلا لفترة معينة من السنة، لكنه يعد «رائداً حقيقياً في دراسة المجتمع والذي اتخذه إطاراً للمسح الإقليمي». وأفكاره في هذا الباب شديدة الصلة بآراء بعض المفكرين الفرنسيين وخصوصاً عالم الاقتصاد والمهندس فِردِرِكْ لُپّلي والجغرافي الثائر إِلزي رُوكْلي. ولقد أسس جِدْس في سنة 1914 رابطة المسح الإقليمي*. وهو يبني مفهومه الإقليمي على معادلة لُپّلي التي تجمع بين المكان والعمل والناس. «وهو يؤمن بأن الفهم الثابت للمجتمع يجب أن يبني على دراسات ضمن إطار مناطق جغرافية واضحة المعالم ومتميزة كأن تكون قطراً أو مدينة»[80] مع اعتبار المكان والعمل والمجتمع مقومات ذات خصائص متميزة يربطها جِدْس بكل من الجغرافيا الاقتصادية والإناسة.

78

تخرج تشيزلم من جامعة إدِنبرة ثم التحق بجامعة لندن ليقضي فيها قسماً كبيراً من حياته كمحاضر. وله كتاب هام في الجغرافيا التجارية نشر سنة 1889. كما تولى تحرير المعجم الجغرافي الذي أصدرته دار لُنجمانْ سنة 1895. وفي عام 1908 أصبح أول محاضر للجغرافيا بجامعة إدنبرة. وكانت له عناية كبيرة بالقضايا الاجتماعية. فهو صاحب عبارة «الأثنوغرافيا الاقتصادية» التي كان يقصد بها دراسة تأثير العوامل الجنسية والقومية والاقتصادية على مستويات المعيشة ومشاكل السكان.

79

هذه الأحكام منقولة عن ت.و. فريمان، **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، ص 101.

* **Edward Suess 1831-1914**

* **Willian Penk**

* **Siegfried Bassarge**

* **Regional Survey Association**

80

Dickinson (R. E.) **Regional Concept,** The Anglo- American leaders, Routeledge and Kegan Paul, London, 1976.

عن علي عمر الفرا، **اتجاهات الفكر الجغرافي**، سابق، ص 69.

منتظمة بدأ بتعيين **هَلْفورْد ماكنْدَر*** سنة 1887 أستاذاً مساعداً بجامعة أكسفورد التي شهدت تأسيس أول قسم للجغرافيا في بريطانيا عام 1900[74].

ومع ذلك فإن التقدم كان بطيئاً ومشكوكاً في أمره في بعض الجوانب حتى كانت سنة 1905 التي نشر فيها **جُونْ أندرو هِرْبِرْتسَن***[75] دراسته المشهورة : «الأقاليم الطبيعية الكبرى للعالم» الذي يقول فيه : «إننا في هذه البلاد أقل تقيّداً بالتقاليد بالنسبة لبعض البلاد الأخرى حيث لا توجد عندنا في واقع الأمر جغرافيا أصولية يمكن الاسترشاد بها. فلما ظهرت الجغرافيا الأكاديمية ظهر للجغرافيا مفهوم أوسع وهو أنها علم التوزيعات». ثم يستطرد قائلًا : «إن الجغرافيا لا تهتم بتوزيع عنصر واحد على سطح الأرض بل بتوزيع العناصر كلها»[76].

لكن زعامة الجغرافيا ستكون بلا منازع لـ**سَارْهَلفورْد ماكِنْدر** الذي يرد إليه الفضل في إرساء قواعد الجغرافيا كعلم يدرس في الجامعات البريطانية. فلقد كانت حياته العلمية متنوعة للغاية فبعد أن ترأس كلية رِنْج الجامعية أصبح مديراً للمدرسة الاقتصادية الكندية ثم عضوا في البرلمان. وهو الذي وضع أساس مدرسة الجغرافيا بأكسفورد عندما كان يعمل بها من سنة 1887 إلى سنة 1905. «وقد دخل ماكِنْدر الجغرافيا من باب علم الاجتماع وتأثر كثيراً بآراء پاترِكْ جِدْس وأفكاره عن العلاقة بين البيئة والإنسان»[77]؛ هذه الأفكار التي لا يستطيع أحد أن ينكر دورها الفعال في توجيه الجغرافيا البريطانية الحديثة وذلك بشهادة كل معاصريه الذين أسسوا المدرسة الوطنية مثل **هربرتسن** و **هيو رُبَرْت مِل*** و **سْكوتْ كِلْتي*** و **جورج جودي تشيزَلْم***.

من المعلوم أن فترة ما بين الحربين قد شهدت توسعاً هائلًا في الميدان الجغرافي، لا في ألمانيا وفرنسا فحسب، بل حتى في بريطانيا أيضاً بفضل النشاط الدؤوب للرواد الذين كانوا يعلمون بالجامعات والمدارس إذ وضعوا برامج خاصة بطلبة الامتياز كان أولها في جامعة لِيڤرْپُول سنة 1917، ثم في كل من أبِرَسْتُوايذْ ولندن بعد عام فقط، ثم في كَمْبرِدْج ولِيدزْ سنة 1919. كما اضطلع هؤلاء بمهمة التأليف وإعداد الكتب المدرسية. ومن

* Halford Mackinder 1861-1948

74
عينه، ص 67.

* John Andrew Herbertson 1865-1915

75
بعد الدراسة في كل من ألمانيا (فريبُرْج Fribourg) وفرنسا (باريس) بدأ هِربِرْتسنْ يعمل في ميدان الأرصاد وعلم البحار. وهو من مؤلفي أطلس «بَرْتُولوميو» للأرصاد. لكنه بعدما التحق بالجامعة اشتغل بعلم النبات بكلية دَنْدي (Dundee) الجامعية تحت إشراف پاترِكْ جِدْس. ثم بعدها عمل بكلية أووِنس (Owens) بمانْشِسْتر ما بين 1894 و1896؛ ثم في أكسفورد. وله عدد من الكتب المدرسية التي ألف بعضها بمساعدة زوجته.

76
ت.و. فريمان، **الجغرافيا في مائة عام**،سابق، ص 88.

* Hugh Robert Mill
* Scott Kiltie
* George Goudie Chisolm

77
محمد عمر الفرا، **اتجاهات الفكر الجغرافي المعاصر**، سابق، ص 68.

أبرزهم ماكِنْدَر وهِرْبرسْتنْ بمعيه زوجته «ذات الكفاءة العظيمة» و **مَارْيِنْ ليوبِجَنْ** «وهي سيدة موهوبة خصصت مجهودها الرئيسي لخدمة الجمعية الجغرافية الملكية الاسكتلندية، ولم تتفرغ في أي وقت من الأوقات لوظيفة جامعية» وتشيزلم[78]، الذي أخرج نسخة مختصرة من «كتابه الخالد» في الجغرافيا الاقتصادية[79]. وقد ساهمت هذه الكتب مساهمة محمودة في الرفع من مستوى الجغرافيا وجعلها مادة جذابة وممتعة للمتعلمين.

ولما أخذ التعليم الجامعي ينمو ويتطور أصبحت الحاجة إلى الكتاب الرفيع المستوى تطرح بإلحاح شديد، الأمر الذي أدى بالضرورة إلى اعتماد عدد كبير من الكتب الفرنسية أهمها كتابي جانْ بْرونْ وفدال دُلَبْلاش في الجغرافيا البشرية ومؤلفات أَلْبِيرْ دمنْجون التي ترجم بعضها إلى الانجليزية ككتاب «اضمحلال أوروبا» (1920) و «الامبراطورية البريطانية» (1923) وهو المرجع الذي ظل الطلاب البريطانيون يلجأون إليه لدراسة جغرافية بلادهم. كذلك فعل الجغرافيون الطبيعيون الذي اتخذوا ألمانيا قبلة لهم فاعتمدوا على كتب **سُووِس**، صاحب مؤلف «وجه الأرض» المكون من أربعة أجزاء (1883 – 1909) والذي ترجم إلى الانجليزية والفرنسية؛ وإنتاج **بِنْك*** و **باسرج*** و **ديفز**.

إن پاتْرِك جِدْس في الأصل عالم نباتي كان يشغل معظم حياته منصباً في جامعة دَنْدي، وهو منصب لم يكن يتطلب التدريس إلا لفترة معينة من السنة، لكنه يعد «رائداً حقيقياً في دراسة المجتمع والذي اتخذه إطاراً للمسح الإقليمي». وأفكاره في هذا الباب شديدة الصلة بآراء بعض المفكرين الفرنسيين وخصوصاً عالم الاقتصاد والمهندس فِردِرِكْ لُپّلي والجغرافي الثائر إلزي رُوكْلي. ولقد أسس جِدْس في سنة 1914 رابطة المسح الإقليمي*. وهو يبني مفهومه الإقليمي على معادلة لُپّلي التي تجمع بين المكان والعمل والناس. «وهو يؤمن بأن الفهم الثابت للمجتمع يجب أن يبني على دراسات ضمن إطار مناطق جغرافية واضحة المعالم ومتميزة كأن تكون قطراً أو مدينة»[80] مع اعتبار المكان والعمل والمجتمع مقومات ذات خصائص متميزة يربطها جِدْس بكل من الجغرافيا الاقتصادية والإناسة.

78

تخرج تشيزلم من جامعة إدنبرة ثم التحق بجامعة لندن ليقضي فيها قسماً كبيراً من حياته كمحاضر. وله كتاب هام في الجغرافيا التجارية نشر سنة 1889. كما تولى تحرير المعجم الجغرافي الذي أصدرته دار لُنجمانْ سنة 1895. وفي عام 1908 أصبح أول محاضر للجغرافيا بجامعة إدنبرة. وكانت له عناية كبيرة بالقضايا الاجتماعية. فهو صاحب عبارة «الأثنوغرافيا الاقتصادية» التي كان يقصد بها دراسة تأثير العوامل الجنسية والقومية والاقتصادية على مستويات المعيشة ومشاكل السكان.

79

هذه الأحكام منقولة عن ت.و. فريمان، **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، ص 101.

* **Edward Suess 1831-1914**

* **Willian Penk**

* **Siegfried Bassarge**

* **Regional Survey Association**

80

Dickinson (R. E.) **Regional Concept, The Anglo- American leaders, Routeledge and Kegan Paul, London, 1976.**

عن علي عمر الفرا، **اتجاهات الفكر الجغرافي**، سابق، ص 69.

ولذلك فهو يرى أن «من هذا الثالوث الأصلي [...] تنشأ اتصالات جديدة وأفكار حديثة. المكان – العمل هو التعدين والنشاط الغابي أو الصيد البحري : العمل الذي يمكن أداؤه في أماكن مغينة فقط. وشبيهاً بذلك فإن المكان – المجتمع ينطبق على الإسكيمو والأقوام الرحل مثل الفايكنج : أقوام صاغتهم بالتحديد بيئتهم. إلا أن هناك عملا ثابتا ورد فعل، فلو أن هولندا صنعت الهولنديين فإنه ليس صدقا القول بأن الهولنديين صنعوا هولندا»[81].

81

عينه، ص 70.

والأكثر إثارة من ذلك أن جِدْس استخدم دراسته الحيوية أساساً للتخطيط فكان دائما يبتكر الآراء التي تثير التفكير. فكما أن البيولوجي يجب أن يتوصل إلى تعميمات أولية وسريعة معتمداً على خبرته بالطبيعة فإن الباحث الاجتماعي عليه أن يمارس الميدان متوسلا الملاحظة العملية والتسجيل والتعليل. وقد طبق هذا المنهج بالفعل من قبل الجغرافيين ومخططي المدن والأقاليم تطبيقا على أوسع نطاق، خصوصا خلال ما بي الحربين، داخل بريطانيا وخارجها في الهند وفلسطين بالدرجة الأولى. ولا شك أن هذا يعني أن فكرة المسح الإقليمي جاءت لتعطي نفَساً جديداً لمفهوم الاقليمية التي أصبحت ركيزة لإعادة البناء السياسي للتراب.

فلا غرابة إذن إذا انعكست أفكار جِدْس وآراؤه على أعمال كبار الجغرافيين البريطانيين ومشاهيرهم ككتاب ماكِنْدَر الذائع الصيت «المُثل الديمقراطية والحقيقة» ومؤلف **فَوْست*** عن «ولايات انجلترا»[82].

* Charles. B. Fawcett

إذا جاز اعتبار جِدْس رائد الجغرافيا البريطانية فماكِنْدَر هو مؤسسها الحقيقي. ولقد تتلمذ عليه جيل بأكمله من الجغرافيين الذين ساهموا مساهمة فعالة في بناء هذه الجغرافيا وتطويرها. والجغرافيا بالنسبة له بمثابة الجسر الذي يربط بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية من جهة ويصل بين التاريخ والجيولوجيا من جهة أخرى. ومن هنا جاءت فكرته حول «التمحور الجغرافي للتاريخ» التي يستعين بها لشرح شؤون العالم السياسية. وهي في الواقع ليست فكرة جديدة. وهي تفيد أن الحدث التاريخي يتخذ من المكان الجغرافي محوراً له، لذلك اعتبرت الجغرافيا

82

لم يقتصر تأثير جِدْس على الجغرافيين وحدهم بل امتد اشعاعه أيضا إلى غيرهم من المفكرين كـلَوِسْ مَمْفورْد. فلقد استفاد هذا الفيلسوف الاجتماعي الأمريكي كثيراً من فكرة نمو المدينة في ستٍّ مراحل التي طورها وعمل على نشرها في العالم أجمع (Necropolis, Tyrannopolis, Megalopolis, Metropolis, Eopolis, . Village economy)

ضرورية للتحليل والفهم التاريخيين. وإلى ماكِنْدر تُنسب أيضاً نظرية القاعدة الطبيعية للقوى في العالم[83]، ناهيك عما ابتدعه من مصطلحات راج استعمالها في الجغرافيا وغيرها من العلوم الاجتماعية[84].

ولقد أوضح ماكِنْدَر تصوره للجغرافيا في محاضرتين : الأولى في عام 1887 في الجمعية الجغرافية الملكية والثانية بعد ثمان سنوات في القسم الجغرافي التابع للرابطة البريطانية لتقدم العلوم. ففي الأولى يتساءل عن موضوع الجغرافيا ومنهاجها ويقول : ما هي الجغرافيا ؟ وجاء رده على مرحلتين. فبعد أن قدم التعريف الشائع الذي يجعل من الجغرافيا العلم الذي يتتبع تفاعل الإنسان في المجتمع وبيئته وبحسب التغير الذي يتعرض له مكانيا، بادر إلى بديل له بقوله : «انها العلم الذي يتتبع تنظيم الأشياء على سطح الأرض» ويستطرد قائلا بأن البيئة المتغيرة هي وظيفة الجغرافيا الطبيعية وعملها. ومن أقواله في نفس المقال : «الجغرافيا كالشجرة التي انقسمت مبكراً إلى فرعين كبيرين لكن أغصانها متداخلة ومنسوجة مع بعضها البعض بطريقة لا تنفصم عراها. وبناءاً عليه ينبغي تدريس الجغرافيا ككل موحد»[85]. ثم يقول : «إن التمييز الصحيح بين الجيولوجيا والجغرافيا كما يبدو لي، هو أن الجيولوجي ينظر إلى الحاضر الذي قد يفسر الماضي، أما الجغرافيا فتنظر إلى الماضي الذي قد يفسر الحاضر»[86].

أما في الثانية فهو يؤكد على المنهج ويوضح كيفية معالجة الحقائق الجغرافية وأسلوب تصنيفها. وهذه الحقائق يمكن معالجتها في نظره بطريقتين إحداها موضوعية والأخرى إقليمية. فالطريقة الموضوعية تصنف الحقائق إلى مواضيع عامة أو ظاهرات كالأنهار والجبال أو المدن مثلا أما الطريقة الثانية فهي معالجة إقليمية على شكل بلدان مثل إيطاليا أو إرلندة أو أستراليا.

إذا كان سَارْ هِلْفورد ماكِنْدَر يعتبر مؤسس الجغرافيا البريطانية فإن **هِرْبرتسُن** يعد هو الآخر شخصية لامعة وقمة علمية في بلده. فهو، وإن لم يعمر طويلا، قد ترك بصماته واضحة على الفكر الجغرافي البريطاني، وإذا كان كلاهما يميل إلى الجغرافيا الإقليمية فهِرْبِرتسُن يأخذ مبدأ الإقليم الطبيعي بدلًا من الوحدة السياسية. وهذه الفكرة التي

83

وهي نظرية قال بها قبل نشوب الحرب بين روسيا واليابان (1904 ــ 1905) بأسابيع معدودة ثم استخلص منها فكرة «منطقة المحور» Pivot area أو قلب الأرض Heart Land في اليابس، المسمى كذلك بالجزيرة العالمية لغلبة الماء على اليابس.

84

من هذه المصطلحات ما ذكره محمد علي الفرا (**اتجاهات الفكر الجغرافي**، سابق، ص 71) مثل القوة البشرية man power والدفع الاجتماعي Social momentum والاهتمام المستمر going concern والعقدية nodality، وهو المكان الذي تتلاقى فيه جميع الطرق وتخترقه.

85

عينه، ص 72.

86

Dickinson (R.E) **Regional concept** op.cit p 89.

عن محمد عمر الفرا، سابق، ص 72.

يتضمنها كتابه «الجغرافيا الراقية»* المنشور في سنة 1907، والتي أطلق عليها الوحدات الأرقى، ظلت لمدة من الزمن تشكل الموضوع الرئيسي في تطور المفهوم الإقليمي في بريطانيا.

* Senior Geography

والجغرافيا كما يفهمها هِرْبِرتْسُن هي دراسة لطبقات ورتب البيئات الطبيعية والبشرية، وهو يطلق عليها تسميات كالنواحي والمراكز والأقاليم. فهل يكون هِربرتسُن قد تأثر إذن بأفكار هِتْنر الألماني ؟ فكيفما كان الحال فهو يولي عنايته أساساً إلى الوحدات الكبرى في النظام الطبقي الإقليمي التي يصفها على نحو ما يشرحه بقوله : «في تصنيفنا لهذه الوحدات الأكبر قد نختار هذا العمل أو ذاك كخاصية مثلما اختار لِنّوْس* الأعضاء الذكور في تصنيفه للنباتات المزهرة. أو قد نطبق نظاماً طبيعياً ونأخذ في الحساب جميع الأشكال والأصناف، ومن الممكن تقسيم العالم إلى أقاليم بنوية وأقاليم جبلية، وأقاليم مائية، وأقاليم مناخية، وأقاليم بيولوجية، وأقاليم أنثروبولوجية. ومثل هذه التقسيمات [...] هامة وضروريّة للجغرافي والذي يجب أن يفحصها بعناية قبل محاولة تحديد الأقاليم الطبيعية الجغرافية. وذلك بالتركيز على عنصرين أو ثلاثة من العناصر السابقة. ومن الناحية العملية أو التطبيقية فإن من الأفضل اختيار العاملين التاليين كمعيار للتقسيم الإقليمي.

* Linnaeus

أ ـ مظاهر السطح كمؤشر للبنية وللعملية التي صاغت الأشكال السطحية لهذه البنية.

ب ـ الحياة النباتية الطبيعية كتعبير عن نوعية المناخ والتربية.

أما في الدراسة البشرية فهو مع حرصه على عدم إهمال البيئة يؤكد على إدماج الإنسان بماله من دور فعال في الإقليم الجغرافي. فالإقليم ليس مجرد بيئة سلبية بل مسرح عمل الإنسان الذي يتفاعل معه تفاعلا قويّاً»[87].

على الرغم من تأثيرات ألمانية لا تُنكر، فإن الجغرافيا البريطانية وثيقة الصلة بالمدرسة الفرنسية التي ظلت تقتدي بها زهاء أربعين سنة ودون أدنى محاولة جادة للانسلاخ عنها وتجاوزها، اللهم ما كان من تدقيق

87 عينه، ص 73 ــ 74.

مقاييس الدراسة من جهة، والعناية أكثر بالجوانب الاقتصادية والسياسية من جهة أخرى. وستظل الأوضاع على هذا النحو إلى غاية الستينات، إلى درجة أنه يشترط على طلاب جامعتي كَمْبرِدج وأُكسْفورد الراغبين في التخصص في الجغرافيا إجادة اللغة الفرنسية ![88].

88

Claval (Paul), **Geographie économique et humaine contemporaine**, op.cit, p 82.

فإذا كان الجغرافيون البريطانيون لا يطمحون بتاتاً إلى تأصيل المادة ولا يسعون إلى ابتكار الأفكار فهم مقابل ذلك حريصون كل الحرص على اتقان «الصنعة» وإحكامها. وهذا بالفعل ما حققه كبار الأساتذة – مثل **آلَنْ جرَانْت أُجِلْفي*** و **بِرْسي مُوذْ رَكْسبي***، الذين عملوا على تخريج أجيال من الباحثين البارعين الذين اغنوا بدراساتهم القيمة وإسهاماتهم المتنوعة الخزانة الجغرافية فأعطوا بذلك انطباعاً طيباً عن الجغرافيا كمادة أساسية وحيَّة.

* **Alan Grant Ogilvie 1887-1954**

* **Percy Mande Roxby 1880-1948**

2.1.3 – من الجغرافيا الروسية إلى الجغرافيا السفياتية

تميزت الجغرافيا الروسية في نهاية القرن الماضي بحيوية كبيرة وشخصية بارزة. وهي تيار تأسس على المزاوجة بين مفهومي المشهد والبيئة، لكن على طراز يغاير ذلك الذي يطبع مدرسة بركلي الأمريكية. لقد أخذ الروس عن الألمان أساسيات الجغرافيا الطبيعية لكنهم طوروها حتى تلائم ظروف بيئتهم الخاصة. وهكذا نجد الباحثين الروس مثلا يولون عناية كبرى لموضوع العلاقة بين التربة والنبات. وهذه العلاقة هي التي ارتكز عليها **دُوكَتْشِيِّفْ***، رائد الجغرافيا الطبيعية الروسية، لتحديد المشهد ورسم معالم سهول روسيا وفضاءات سيبيريا الواسعة.

* **Dukachaev**

وإذا كان الروس يعتبرون، هم أيضاً، أن الجغرافيا هي علم المشاهد، بدليل استعمالهم مصطلح «لاندشفت»، فإنهم بخلاف الألمان يجردون ذلك المفهوم من شحنته السُّلالية التي تعاظم أمرها هنالك في العقدين الأولين من القرن العشرين. ومع هذا فهم يفهمون المشهد كما رآه شلوتَرْ على غرار الطبيعيين، أي كوحدة نشأت عن تفاعل القشرة الصخرية والمحيط الأحيائي والغلاف الجوي والمياه. إلا أن الجغرافيا الروسية وهي تدرس المشهد تهتم أساساً بالتغيرات التي تحدث للغطاء النباتي وتهدوره

بفعل الإنسان. غير أن البحث في أسلوب تعامل الإنسان مع بيئته وطرق التأثير عليها يتم بعيداً كل البعد عن الحتمية السائدة في أوروبا آنذاك. ومن المحتمل جدّا أن يكـون وراء طَرق هذا الموضوع، الذي تـألـق فيه مع بداية القرن **أَلِكسَندر فُيكوف*** [89]، دوافع سياسية جعلت الجغرافيين الروس المتعاطفين مع الشعب يوظفون القضيـة ويتخذونها مطية للدفاع عنه بطريق غير مباشر.

وهذا بالذات ما خلّى الجغرافيا تسترسل وتعيـش حتى بعد الثورة البُلشُفية كما يذكـر **دَيْفَدْ هـوزَنْ**[90]، لـكن بعد أن أُفرغت إفراغاً في قالب الماركسية. ففي 4 ماي من عام 1918 تم تأسيس الجغرافيا السفياتية رسمياً كفـرع للجنة المكـلفة بدراسة الطاقات الإنتاجية الطبيعية التابعة لأكاديمية العلوم. ولقد خطت الجغرافيا بعد ذلك خطوات حثيثـة بفضل كل من **بِـرْج*** و **چرچُـرْيِيفْ*** و **بَـرانسْكـي**. فالأولان يعتبران مؤسـسي الجغرافيا الطبيعية السفياتية، بينما يعد الثالث مؤسس الجغرافيا البشرية.

لما تـقيد العلم بالمذهب الرسمي للدولة الجديدة وتلون بلون الماركسية اللينـينية أصبحت الجغرافيا، كغيرها من العلوم، لا تستـطيع التحرك إلا في نطاق المادية الجدلية مع التحرز من الحتمية التي تنافي التصور الماركسي للإنسان؛ هذا الإنسان الذي يقدر على تطوير الطبيعة وتسخيـرها خدمة للطبقة الكادحة. أما الحجـة التي يقدمها الحتميون بقولهم : «أنـه يستحيل زرع شجـر الموز بالقطب الشمالي وإنبات فاكهة الأنـاس بچريلندا» هي حجـة داحضة في رأي الجغرافييـن السفيات بأدلة كـثيرة ومتنوعة كاستصـلاح أراضي كـزخستان البكر وبراري آسيا الوسطى الجائعـة أو التجهيزات الجبارة ببراتسـك وكُوِبِشاف أو نجاح الزراعة القطبية أو الملاحة في المياه الشماليـة. وعليه فإن كل تصور بيئـي حتمي تصور مردود لأنه يعارض المذهب الماركسي اللينيـي، الذي يـرفض أن يـكون الإنسان خاضعاً للطبيعـة[91].

ومن المفارقات العجـيبة أن تـظل الجغرافيا الروسية مع ذلك عاكلفة على دراسة تأثيرات البيئة على تطور المجـتمع واعتبارها موضوعاً رئيسيا لعشرات من السنين. ويوعز هذا الاهتمام إلى آراء بعض مؤرخي القرن الماضي

89

Woeikov (Alexander), **De l'influence de l'homme sur la terre,** Annales de Géographie, Vol X, 1901, pp 97-114 et 193-215.

*** Alexander Woeikov**

90

Hooson (David), **The develepment of geography in pre- Soviet Russia,** Annals, Association . of American geographers, Vol 58, 10 n° 1, p 41-44.

*** Berg 1876-1950**

*** Grigoriev 1883-1968**

*** Baransky 1881-1963**

91

Sabor (Milos M.) **La géographie soviétique : sur quels principes est-elle actuellement basée ?**Revue canadienne de géographie, 1956, Vol 10, n° 1, pp 41-44.

مثل **مشْنكوفْ*** حول دور البيئة[92]، وهي آراء تأثر بها المنظرون الماركسيون الأوائل كـ**پلخنُوفْ***، الذي كان ينظر بالفعل إلى علاقة المجتمع بالمكان من خلال البيئة لأنه اعتبر الماركسية تطبيقا فعليا للنظرية الداروينية في ميدان نمو المجتمع وتطوره. ونظراً لوزنه العلمي وانتمائه إلى الماركسيين المَنْشِفيك لم يتهم پلِخَنُوفْ بـ «التحريفية الجغرافية». ولقد تأثر بأفكاره عدد من القادة البُلشِفيك مثل **بُوخَارِين**، الذي ذهب كما هو معلوم ضحية التصفيات الستالينية الرهيبة.

* **Mechnikov 1838-1888**

* **Plekhanov 1856-1918**

92

Sanguin (André - Louis) **La controverse Anuchin (1960-1976), tournant dans la pensée géographique en U.R.S.S.** l'Espace Géographique, n° 4, 1979, pp 273 - 278.

وفي سنة 1926 قدم **برانسكي***، أشهر الجغرافيين الاقتصاديين الروس، نظريته حول المجتمع ومحيطه الطبيعي. إلا أن ستالين حسم المسألة في شهر شتنبر من عام 1938 حيث ندَّد بشدة بالآراء البيئية وأنكر دور المحيط في توجيه المجتمع. وهكذا تضاف إلى قائمة «الجرائم البورجوازية» جريمة «التحريفية الجغرافية» التي باتت سيفاً مُصلتاً فوق رؤوس الجغرافيين البيئيين. فما دام الإنسان قادراً، بقوة التقدم الاجتماعي، على التحكم في الطبيعة والسيطرة عليها فلا سلطان لقوانين هذه على ذاك. فجاءت مشاريع ستالين الكبرى وصفقت لها جريدة پرافدا ثم أعلن الجغرافيون سيادتهم المطلقة على الطبيعة !

* **Baransky**

ومن أهم مخلفات هذه العقيدة أن انقسمت الجغرافيا في الاتحاد السفياتي إلى جغرافيا طبيعية وجغرافيا بشرية تسير في ثلاثة اتجاهات رئيسية : الأول سيعنى بالظروف الطبيعية وما يلازمها من موارد، والثاني بتوزيع الصناعات وقوى الإنتاج، والثالث بالدراسات الإقليمية ووضع الخرائط. ولقد حققت الجغرافيا في الميدان الطبيعي نتائج هامة في فروع المناخ والمياه والبحار والثلوج والجيومورفولوجيا والأتربة والأحياء. كما عملت على صياغة نظرية عامة للجغرافيا الطبيعية ساهم فيها نفر من الباحثين كـدُكَتْشِيفْ و بِرْج، اعتماداً على تحليل تاريخي للمشهد، و چرچُوْييفْ* صاحب فكرة الغلاف الجغرافي الطبيعي. أما الاتجاه الثاني، المهتم بتوزيع قوى الإنتاج، فهو يندرج كليّاً في الإطار اللينيني وتخطيطه الخمسي للإقتصاد الاشتراكي. وفي

* **Grigoriev**

هذا الميدان يبرز بَرانسكي و **كُلُفسْكي***، اللذان طورا مفهوم المنطقة الاقتصادية. ولا شك أن الفرع الثالث في هذه الجغرافيا هو الذي يقدم أحسن وأفيد المنجزات التي توصلت إليها الجغرافيا السفياتية بالنظر إلى كثرة الأطالس وتنوعها وتعدد الدراسات الإقليمية وانتشارها.

* Kolovsky 1891-1954

وإلى غاية الحرب العالمية الثانية ظلت الجغرافيا السفياتية تعطي الأولوية للدراسات الطبيعية حتى أحرزت على قصب السبق في بعض فروعها كالأبحاث المتعلقة بالقطبين أو تلك التي تخص الظرء الديوم[93]. أما الجغرافيا الاقتصادية فهي ستنمو بعد الحرب وببطء ملحوظ. فالسفيات ينظرون إلى الجغرافيا البشرية على أنها أولًا وقبل كل شيء جغرافيا اقتصادية بمقتضى الايديولوجيا المعمول بها والتي تجعل من قوى الإنتاج أساس البناء الاشتراكي. وهذا ما جعل الجغرافيا الاقتصادية تتطور في حجر مصالح التخطيط القطاعي والاقليمي وتعالج قضاياها في أحضان المؤسسات الاقتصادية. وذلك هو السِّر في ابتكار الجغرافيا السفياتية مبكراً لكثير من الطرق العملية والأساليب المنهجية في ميدان التخطيط الريفي والحضري.

93

أي المَسَكة الباطنية من التراب المتجمدة على مدار الحول (وهي تسمى بالانجليزية Permafrost وبالفرنسية Pergelisol أو Gélisol).

إن المراقبة الشديدة والحصار الأيديولوجي الصارم الذي ضرب على الفكر بصفة عامة، والعلم بصفة خاصة سرعان ما أبعد عن ساحة البحث كل الجغرافيين «ذوي الميولات البرجوازية». أما أولئك الذين ناصروا أفكار **فيبَر** ونادوا بتخطيط الصناعة وفقها فكان جزاؤهم الحبس لأنهم بأفكارهم الفاسدة هذه، يعارضون الخطط الخمسية التي أقرها ستالين ويعملون ضد الثورة ! وهكذا بسبب الاضطهاد الفكري من جهة، وشجب كل نزعة بيئية من جهة أخرى، لجأ معظم الجغرافيين إلى الميدان الطبيعي الذي رأوا فيه ملاذاً قد يقيهم شر هذه العقيدة ويعصمهم من بطشها. وبذلكم تنفصم عرى الجغرافيا وتنشطر شطرين متقابلين، دونما أي حرج.

ومن التبريرات التي يقدمها أساطين الجغرافيا المقربين من السلطان لهذا الفصل اختلاف القوانين التي تحكم الفرعين. فإذا كانت الجغرافيا الطبيعية تخضع لقوانين طبيعية، فإن الجغرافيا الاقتصادية بالمصطلح

السفياتي – تخضع لقوانين الاقتصاد الماركسي. ثم أن المزاوجة معرضة في نظرهم إلى خطر الحتمية التي تعد من أقبح عيوب الجغرافيا الغربية. وأخيراً وليس آخراً فقد لا يغيب على أحد ما أصاب شجرة الجغرافيا في الاتحاد السفياتي من تشذيب بالغ لكثير من أغصانها، بل وقطع جائر لبعض فروعها كالجغرافيا التاريخية والجغرافيا السياسية أو الجغرافيا الاجتماعية الخ...

2.3 ـ لمحة عن التيارات الثانوية

1.2.3 ـ باقي أقطار أوروبا الشمالية والشرقية : نزعة ألمانية

لقد تطورت الجغرافيا خارج البلدان السالفة الذكر بالاعتماد كليا أو جزئياً على النماذج السائدة في أوروبا وعلى رأسها ألمانيا وفرنسا. فالمدرسة الألمانية بالغة التأثير في بلغاريا وتشكسلفاكيا وبلندا. بينما رومانيا يلتقي فيها إشعاع المدرستين معاً نظراً لمكانة اللغة الفرنسية فيها من جهة، وانتشار مؤلفات دُمَرْطونْ من جهة ثانية. وقد تقرب سِرْبيا من هذه الحالة بفضل الجغرافي الكبير **يُوَانْ سِفِييتْش*** الذي تلقى تعليمه في فيينَّا بصحبة بِنْك وسَاوِسْ؛ ثم كانت له روابط بدُمَرطونْ الذي أصبح يتزعم المدرسة الفرنسية بعد وفاة دُلَبْلاشْ. ولا شك أن هذه الصداقة هي التي هيأت لدُمَرْطون ظروف تعميق دراسة الكارست وسمحت لِسِفِييتْش بنشر كتابه الهام عن البلقان في باريس سنة 1918.

* Jovan Cvijic 1865-1928

أما الجغرافيا الاسكندنافية، وخاصة الجغرافيا السويدية، فهي وإن تأثرت بالنموذج الألماني أساساً، ظلت متفتحة للقاحات الروسية التي حملها الفِنْلَنْدِيون الناطقون بلغة جيرانهم. كما أنها أفادت أيضاً إفادة جمة من أفكار الجغرافيين الأمريكيين. والجغرافيون الاسكندناف شأنهم شأن زملائهم البريطانيين، يتقنون العمل ويضبطون المنهج أكثر مما يكترثون بالمفاهيم.

2.2.3 ـ العالم اللاتيني : ميولات فرنسية

إذا كانت المدرسة الألمانية قد ألقت بظلالها على جل أقطار أوروبا، فإن البلدان اللاتينية، أوروبية وأمريكية، تميل ميلا ملحوظاً نحو المدرسة الفرنسية. صحيح أن الجغرافيا الايطالية[94] ذات صلات وطيدة بالجغرافيا الألمانية، بحكم وجود عدد من الباحثين المتخرجين من المعاهد النمساوية، وبالنظر أيضا للنزعة الجرمانية لايطاليا في الثمانينات من القرن الماضي بسبب موقفها من فرنسا، لكنها رغم ذلك عرفت ما بين الحربين توجها واضحاً واهتماماً خاصاً بمواضيع معينة أولتها عناية بلغت حد المبالغة كما هو الشأن بالنسبة للسكن الريفي الذي يعد من أبرز المواضيع التي عالجتها المدرسة الفرنسية كما هو معلوم.

أما شبه الجزيرة الإيبيرية وبلدان أمريكا اللاتينية، التي لم تعرف مدارس حقيقية قبل سنة 1940[95]، فتأثير المدرسة بيِّن فيها لا غبار عليه، خاصة في اسبانيا[96]. وفي البرازيل كان لبعض الاعلام الفرنسيين (**دِفُنطين***، **مُنبِيج***، **رُولَّن***، **لُولَنُو***) دور حاسم في انطلاق الجغرافيا بهذا البلد في الثلاثينات. فهم الذين أشرفوا على تكوين الرعيل الأول من الجغرافيين البرازيليين وتوجيههم وتدريبهم على العمل الميداني. لكن هذا الدور الفرنسي لم يمنع من تأثيرات أخرى : ألمانية ثم أمريكية، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية. فإذا كان الجغرافي الألماني **لِبو هَاينرِشْ فايْلْ*** عمل على توجيه البحوث نحو القضايا الاقتصادية ودراسة المشاهد، فإن الأمريكيين، وعلى رأسهم **هِلْجارْد*** و **أُورَيْلي*** و **سترنبِرْج***، قد عاينوا الواقع البرازيلي على ضوء آراء قريبة من تصور مدرسة بركلي.

3.2.3 ـ العالم الأسيوي : التبعية للغرب (حالة اليابان)[97]

إن الجغرافيا العصرية في اليابان شأنها شأن باقي العلوم «بضاعة»، بضاعة جلبت من الغرب بعد ثورة الأنوار (عصر الميجي). لكن الجغرافيين اليابانيين يرجعون تاريخ النشاط الجغرافي إلى ما قبل ذلك بكثير وبالضبط إلى القرن الثامن الميلادي. ففي هذا القرن بالذات عملت السلطات، تأسيا بالتقاليد الصينية، على وضع مصنفات لمجموع أقاليم

94

Gambi (Lucio) **Esquisse d'une histoire de la gégraphie en Italie,** in Travaux de géographie fondamentale, Paris, Les Belles Lettres, 1974 pp 9-39.

95

Capel (Horacio) **Filosofia y ciencia en la géografia contemporanea,** Barcelona, 1981.

96

Ruidor (Lluis). **Les Géographies Universelles et l'approche régionale de la géographie espagnole du siècle dernier,** l'Espace Géographique, n° 3, 1987 pp 185-191.

* **P. Desfontaines**
* **P. Monbeig**
* **A. Ruellan**
* **M. Le Lannou**

* **Leo Heinrich Waibel 1855-1951**
* **Hilgard**
* **O,Reilly**
* **Sternberg**

97

إن ما نتوفر عليه اليوم من مؤلفات حول تاريخ الجغرافيا الحديثة والمعاصرة لاشك أنه رصيد هام، أخذ يتراكم بشكل واضح خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية بفعل أزمة العلوم الاجتماعية التي دفعت جل هذه العلوم، ومنها الجغرافيا، إلى مراجعة نفسها وتصحيح مسارها وبالتالي إلى البحث في

البلاد؛ كما عنيت أيضا في الفترة ما بين 738 و 796 م عناية خاصة بإنجاز الخرائط التي شملت ربوع الامبراطورية بكاملها والتي بقيت تستعمل إلى غاية القرن السادس عشر[98].

ورغم العديد من الأبحاث الجغرافية التي تمت قبل عصر الميجي لم تتمكن الجغرافيا العصرية من النهوض بعد. وهكذا ظل هذا الإنتاج الذي نشر في منتصف القرن التاسع عشر لا صدى له في الأوساط التعليمية والعلمية على السواء، وإن كان يلقى استحساناً من قبل النخبة المثقفة. فلا غرابة إذن أن يتأخر تأسيس الكراسي الجامعية إلى بداية القرن العشرين : سنة 1907 بكلية الآداب بطوكيو ثم سنة 1911 بكلية العلوم بنفس المدينة.

إن الجغرافيا الجامعية التي لم تنطلق مبكراً تأسست تحت إشراف البلدان الغربية، سواء عن طريق البعثات العلمية أو بواسطة المطبوعات. ويكاد يتفق الجغرافيون اليابانيون المهتمون بتاريخ المادة في بلدهم على عدم اعتبار الكتابات السابقة للقرن التاسع عشر كتابات عصرية بالقياس على ما جاء به رِتَر وهَمْبُلت. كما أنهم لا يرون في جغرافيتهم المعاصرة أكثر من مجرد نسخة من الجغرافيا الغربية تتجاهل تجاهلاً تاماً وجود إرث عظيم ذي قيمة كبرى[99].

وهذا الانسلاخ في رأي **طَنَبي هِرُشي**[100] لم يفض، كما هو منتظر إلى اندثار الجغرافيا الأصلية واختفائها نهائيا عن الساحة الفكرية، حتى لو أن الجغرافيا العصرية غزت معاهد البحث وسيطرت على الجامعات واحتلت الكراسي. فهذه الجغرافيا التقليدية التي يسميها طَنَبي بـ «الجغرافيا الابتداعية» مقابل «الجغرافيا الأصولية»، ما تزال حية ترزق، تغذيها أبحاث الهواة وطلبة التاريخ والجغرافيا ورجال الصحافة والقصاصين والاداريين الخ...؛ الأمر الذي خلق في رأيه ازدواجية في الجغرافيا اليابانية[101].

فلما كان عصر الميجي وتقرر تدريس الجغرافيا في الطورين الابتدائي والثانوي، وذلك سنة 1872، وهي السنة بالضبط التي تم فيها نفس الاجراء في فرنسا، كان الساسة يرمون من وراء ذلك وبدافع من التعصب، إلى اذكاء الأحاسيس الوطنية والشعور بالانتماء القومي. فكان طبيعيا أن ينطلق التدريس أولًا في المعاهد العليا للتكوين. ولقد

جذورها وتطورها فكراً ومنهجاً. غير أن هذا الإنتاج الزاخر لم يتوَّج حتى الآن، فيما نعلم، بدراسة تأليفية تعاين كل بلدان المعمور. فلعمري هذا عمل جبار لن يقدر عليه في رأينا إلا الاتحاد الجغرافي الدولي الذي قد يجمل به في المستقبل أن يتبنى هذا المشروع. أما ما هو بين أيدينا من بعض المحاولات في هذا الباب، فهو لا يعدو مجرد وصف سطحي وسرد سريع للأحداث يركزان على العالم الغربي ويتجاهلان ما سواه. ولذلك فلا أحد يستطيع للأسف الإفادة من ذلكم الحصاد الهائل المبثوت في بطون الآلاف من المجلات والكتب وراء ستار عشرات اللغات !

فما بالك إذن بباحث يتعيش في بلد استبدل «الفلكلور» بالفكر وفضل المقاهي والحانات على الكليات والخزانات ؟ فمن أين بالمراجع ؟ فليعذرنا القارىء الكريم إذا لم نشف غليله وليقنع بما سمحت به الظروف.

98

للمزيد من المعلومات عن الجغرافيا اليابانية قبل عصر الميجي راجع :

Pinchemel (Philippe) **L'histoire de la géographie Japonaise,** l'Espace Géographique, n° 2, 1982, pp 165 - 171.

99

Tanabé (Hiroshi), **La géographie Japonaise et sa contribution possible,** l'Espace Géographique, n° 2, 1980, pp 85-93.

100

عينه، ص 86.

101

قد لا تكون هذه الازدواجية خاصة بالجغرافيا اليابانية وحدها. فكل ما ذكره

خصص الأربعة الأوائل منها للإناث : اثنان بطوكيو سنتي 1886 و 1890 ؛ ثم ثالث بهِيروشيما سنة 1906 والرابع بنَارا عام 1910. فما كانت سنة 1886 حتى أعلن عن البرامج الدراسية ثم شرعت وزارة التعليم ابتداءاً من سنة 1904 في طبع الكتب.

غير أن مهد الجغرافيا الحقيقي قد يكون المدرسة الفلاحية التي أنشأت سنة 1876. بمدينة صَپُّورو، وهي المدرسة التي نشر أثنان من خريجها في نفس العام (1894) بحثين جاءا يؤكدان أثر المدراس الغربية على الجغرافيا اليابانية الناشئة : واحد لـ**شِچا شِچطَكا** (1863 ــ 1927) وموضوعه المشاهد اليابانية؛ والآخر لـ**أُشِمُراكَنْزو** (1861 ــ 1930) حول الأرض والإنسان وهو عبارة عن عرض لآراء رِتَرْ وچُوِيُّو ومَارْش وسُمَّرْفِلْ التي اطلع عليها خلال مقامه لمدة سنتين بالولايات المتحدة. وهكذا كان لهذين الرجلين، اللذين شُبها الأول برَتزَل والثاني برتَرْ، دور كبير في جلب التيارات الكبرى للجغرافيا آنذاك من غائية وبيئية وحتمية.

أما الجغرافيا الجامعية فهي كما سبق أن ذكرنا نَمت عن طريق البعثات العلمية إلى أوروبا، وخاصة البلدان الجرمانية وعلى رأسها ألمانيا؛ والولايات المتحدة. وعلى غرار الجامعات الغربية توزعت الجغرافيا في اليابان على مختلف المعاهد والكليات، الأمر الذي أدى هنا كذلك إلى تفرع البحث وتعدد التخصصات والذي سيفضي في المستقبل إلى تقسيم العمل بين معاهد الشمال التي ستميل إلى الدراسات «الطبيعية» ومعاهد الجنوب التي ستعنى بالأبحاث البشرية.

إذا كانت المدرسة الفلاحية بصَپُّورو هي التي زرعت البذرة الأولى للجغرافيا اليبانية فإن جامعة طوكيو هي التي أنجبت مؤسسيها الحقيقيين. فبعد تخرجه من قسم الجيولوجيا بجامعة طوكيو سنة 1895 سافر **يَمَزَكي نُوَمَزا** إلى ألمانيا ثم إلى النامسا حيث مكث هناك أربع سنوات. وبعد عودته من أوروبا عهد إليه بتدريس الجغرافيا في كل من المدرسة العليا للأساتذة والجامعة بطوكيو، ثم أسند إليه سنة 1911 كرسي الجغرافيا الذي ألحق بفرع الجيولوجيا. وبعد ذلك بثمان سنوات

طَنَبي بهذا الشأن مصنفا «البحث الجغرافي الابتداعي» إلى ثلاثة أصناف موجود أيضاً في جل الجغرافيات الوطنية. لذلك فإننا لن نعرض لهذه القضية في هذا التقديم الوجيز. أنظر المرجع السابق، ص 89.

أسس معهد الجغرافيا (1919)، الذي سارعان ما ألحق بجامعة بُنِرْكا الفتيـة التي فتحت أبوابها عام 1929. ولقد كان يَمَـزَكي الجغرافي الوحيد المنتمي للأكاديمية الأمبراطورية للعلوم. أما اهتماماته، فهي وإن كانت متنوعة، ظلت تركز على بعض المسائل الدقيقـة كالأشكال الجليـديـة والبنيات الانكسارية في المناطق المعرضة للزلازل.

أما زميله **أُجَـاوَا طَاكُـوجي** (1870 ــ 1941) فهو أيضا خريج قسم الجيولوجيا (1895). وهو بدوره سافر إلـى الخارج وبالتحديد إلى فيينـا حيث تتلمـذ على سـوِّس وبِـنْك. وفي سنـة 1907 أسندت إليه شعبة التاريخ بجامعة طوكيو كرسي الجغرافيا فأخذ يهتـم بالجغرافيا الاقليمية والجغرافيا التاريخية معاً. لكنه جدد صلتـه بالجيولوجيا حيث أصبح يدرسها لما فتحت الجامعة شعبة خاصة بها.

بجانب الجيولوجيا التي ساهمت بشكل فعال في وضع حجر الأساس للجغرافيا اليابانية، تجدر الإشارة إلى مساهمتيـن لا يستهان بهما : إحداهما للتاريخ بفـضل العالم الكبير **طُـوجُـو يُـشِـدا** (1864 ــ 1918) والأخرى لتيـار ذي نزعة ريـفية يهتم بالأجناس والتراث بقيادة باحثيـن مقتدريـن : **كَـمِشِـطُشي أُدَوشـي** (1875 ــ 1954) وشخصيات لامعة مثل **إنَـزُو نِـطُبي** (1862 ــ 1933)[102].

102
للتذكير فإن نِـطُبي قد شغل منصب نائب رئيس عصبة الأمـم.

ولما أخذ اليابان يتفتـح على العالم الخارجي، بدافع الضرورة التجارية والاقتصادية، ظهر في البلاد عدد من المدارس التجـارية التي اقتادت بالنمـوذج الهولندي ثم ما لبثـت أن أصبحـت مهداً للجغرافيا الاقتصـادية خاصة بعد أن ارتقى بعضها إلى مقام جامعة مستقلـة.

ولقد تميـزت العقود الأولى من القرن العشريـن بإصدارات هامة في ميدان الجغرافيا نذكر منها على سبيل المثال «المعجـم الجغرافي الكبير لليابان»، الذي يقـع في ثمانية مجـلدات. وهو من تأليف طُوجـو يُشِدا، أستاذ تاريخ اليابان بجامعة وَسِـدا؛ و «الجغرافيا الاقليمية لليابان» من عشرة أجزاء (1905 ــ 1914) بقلمي **يَمَـزَكِـي** و **سَـاطـو**؛ و «مشاهد

من اليابان» **لأُسُوِي كُجِمَا**، الذي تأثر إلى حد بعيد بآراء رِتَر وأفكار رَتْزَل.

وتعتبر العشرينات والثلاثينات بداية مرحلة نضج حقيقي تميزت من جهة بتعدد أقسام الجغرافيا وانتشارها حتى في الجامعات الحرة[103]، ومن جهة ثانية بتأسيس جيل آخر من الجمعيات الجغرافية التي كان لكل منها مجلة خاصة. وبهذا يترسخ العمل الجغرافي ويبرز رعيل جديد من الباحثين. ففي طوكيو خلف **تُسُجِمُرا** (المزداد سنة 1890) – وهو جيولوجي متخصص في الانكسارات – يَمَزَكي ليصبح من أقطاب الجغرافيا اليابانية حيث شبهه بعضهم بدُمَرْطون، وإن كان متأثراً أكثر بكارل سَاوِرْ، وهو صاحب أول مؤلف ياباني في الجيومورفولوجيا(1923).

103

لقد تأسس في هذه المرحلة ما لا يقل عن سبعة أقسام، ثلاثة منها في جامعات حرة.

أما **طَنَكا كَايجي**، الأستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة، فهو عمل بمساعدة تلاميذه على تأسيس «مدرسة إقليمية» شبيهة بالمدرسة الفرنسية. وهي مدرسة ما تزال آثارها موجودة حتى آلان. هذا في الوقت الذي عكف فيه **أُشِدا** على تثبيت «الجغرافيا المحلية» (كِيُودوها) على الطريقة الألمانية*، التي تمثل أحد الاتجاهات للجغرافيا التقليدية اليابانية بجانب «المنغرافيات الادارية» (فُودُو – كي) والدراسات الاقليمية للعالم[104].

* Hermatkunde

104

Tanabe (Hiroshi) la Géographie Japonaise et sa Contribution possible op.cit.

ويؤكد مؤرخو الجغرافيا اليابانية أن ما يميز هذه الحقيقة بالدرجة الأولى هو توطيد آصرتها بالخارج وتغلغل التأثيرات الأجنبية فيها حتى أن اهتمام الدارسين لم يتجاوز مجرد الاقتباس والمحاكاة للأفكار والمواضيع والمناهج التي أخذوا يطبقونها بحذافيرها دون مراعاة لخصوصيات بيئتهم. ففي سنة 1925، حينما كان ألْبير دُمَنْجُون يقوم ببحثه الميداني حول السكن الريفي، سارعت وزارة التعليم إلى إرسال الأستاذ **أَدَوُشي مِشِطَشي** إلى فرنسا الذي لم تمر سنتان فقط على سفره حتى نشر كتابا تحت عنوان : «السكن والجغرافيا». ومن يومها اعتاد الجغرافيون اليابانيون السفر إلى باريس لاستماع المحاضرات التي كان يلقيها جَان بْرُونْ «بالكليج دُفرانس» ومتابعة الدروس

التي كان يشرف عليها أساتذة المعهد الجغرافي كـدُمرْطون و دُمَنْجـون وشُـولي. لكن مع ذلك كله ظل الجرمان يهيمـنون على الجغرافيا اليابانية.

إجمالا يمـكن القول بأن الانتـاج الجغرافي الياباني في هذه الحقبـة الواقعة بين الحربين يماثل إلى حد بعيد الإنتاج الغربي بلونيـه الأوروبي والأمريكي كما تدل على ذلك المواضيع الكبرى المعالجة كموضوع السكن، بشقيـه الريفي والحضري، والجغرافيا التاريخية وتاريخ الجغرافيا باليابان إلخ.... لكن مع حلول سنـة 1937، لما أخذ اليابـان يستعد للحرب، أصبح النشاط العلمي ينحصر وينزوي على نفسه فصار البحث الجغرافي يميـل إلى الجيوبوليـطيقا العدوانيـة كما يتضـح في «بيان حول الجيوبوليطيقا اليابانية» الكتاب الذي أصدره **كُـمَكِـي** سنة 1940، أو في إنشاء الجمعيـة اليابانية للجيوبوليطيقا برئاسة أحد أمراء البحـر في شهر نونبر من سنـة 1941.

ولما انتهت الحرب وانهزمت الامبراطورية شـر هزمية واحتلت القوات الأمريكية البلاد اتخـذ اليابان مساراً جديداً سرعان ما انعكست آثاره على الميدان الجغرافي الذي أصبح يوجهه الجغرافيون الأمريكان. ففي سنـة 1947 أسـس معهد الدراسات اليابانية بجامعـة مِشـچان. وفي سنـة 1949 أشـرف **إدْوَرْد أكِرْمان** على إعداد تقرير حول الموارد الطبيعية للبلاد، اعقبته دراسة عن التربة عام 1951.

وهكـذا تمخـض عن الهزيمـة وضع جديد غير من الرجال حيث عملت قوات الاحتلال الأمريكية على إبعاد كل من اشـتبـه في أمره من الجامعيين[105]. كما أعادت تنظيم المؤسسات التعليميـة وأشرفت على خلق جمعيات جغرافية أخرى أصبحت كلها تعمل على ربط الجغرافيا اليابانية بالجغرافيا الأمريكية ويهيـئها بالتالي إلى استقبال تيار «الجغرافيا الجديدة» بعد الخمسينات.

إن التمايز الذي طبع المدارس الجغرافية، التي ازدهرت في ظرف لم يتجاوز النصف الأول من هذا القرن، لاشك أنه راجع بالدرجة الأولى إلى غياب أساس نظري يلُمُّ الشمل ويوحد الرؤى ويصهر الأفكـار في بوتقة واحدة. ومع ذلك فإن هذا الاختلاف، وإن كان

105
وهكـذا أجبر مثلا كُمَكِي وعدد من زملائه بشعبة الجغرافيا بجامعة طوكيو على الاستقالة.

جوهريا، فهو اختلاف قليل التنوع بحكم محدودية المواضيع المطروقة التي لا تسمح إلا بعدد معين من التراكيب.

وكيفما كان الحال، تظل الصبغة القومية إحدى الصفات البارزة للجغرافيا في هذه الحقبة، تبعاً لما يروج في كل قطر من أفكار ويعرض من قضايا. فالجغرافيا الفرنسية توافق البنية الاقليمية للتراب الوطني التي، وإن أخذت تتطور، ما تزال محتفظة بتقاليدها وخصوصيات أقاليمها؛ كما أنها تلائم المجتمعات التي تقوم على وحدة الأرض أكثر مما تقوم على وحدة العِرق، بحيث يتصل الانتماء الجماعي بالوطن أكثر من اتصاله بالرابطة البشرية.

أما الجغرافيا الألمانية، فهي، وإن كانت بدورها تساير التطور وتعتبر التمايز المكاني، تعكس الآية، إذ تقدم السُّلالة على التراب كما يدل على ذلك اعتناؤها بالمشهد الذي أصبح جوهرها وموضوع بحثها المفضل. وكذلك الشأن في معظم بلدان أوروبا الوسطى.

لا شك أن مدرسة مِيدَلْ وِسْت قد أحسنت صنعاً لما ابتكرته من الأدوات والوسائل ما يستجيب لظروف المجتمع الأمريكي الذي أصبح مربوطاً ربطاً وثيقاً بالأسواق والمبادلات. غير أن مسألة توزيع الموارد وما يترتب عنها من حركات، والتي جعلت منها هذه المدرسة موضوعها الرئيسي، غير كافية لدراسة ذلك المجتمع وتفسيره. وبعيداً عن هذه الاهتمامات انصرفت مدرسة بِرْكلي لدراسة المجتمعات الفطرية (البدائية) وهي تنظر إليها نظرة خارجية كما ينظر الباحث الطبيعي إلى الأجسام.

لا جدال في أن هذا الصرح الذي شيدته المدارس الجغرافية شامخ ومعلمة بارزة على درب الفكر الجغرافي. لكنه مع ذلك إنجاز معرض، عاجلًا أو آجلًا، للانهيار بفعل عوامل داخلية وخارجية. فأما العوامل الداخلية فهي تتلخص في حركة التنظير النشطة التي تنزع إلى توحيد المادة؛ وأما العوامل الخارجية فيه فتتمثل أساساً في تطور المجتمعات، وهو ما سيجعل من المفاهيم والأدوات المتداولة أشياء متجاوزة.